عتبات الجنّة

محمد علي اليوسفي

عتبات الجنّة

رواية

دار الفارابي

الكتاب: عتبات الجنّة
المؤلف: محمد علي اليوسفي
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2007
ISBN: 978-9953-71-212-3

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

الفصل الأول

أنا الجبل

صار الجدّ يرى كوابيس كثيرة في نومه. وها هو ذا يطلب من ابنه أن يجهز السيارة، ليرافقه إلى مكان لم يحدّده. وعندما ألح الابن على معرفة المكان المجهول، اكتفى الجد بالقول: الجبل.

***

لقد بلغَا الجبل فعلاً.

تركا السفح وراءهما. لاح الجد خفيف العظام وهو يرتقي السفح، فأذهل ابنه. لكنه ما لبث أن بدأ يتنفس بصعوبة قرب القمة. قال الابن: "يكفي! يكفي! أنت مرهق!" لاح في الأثناء طفل يحمل مقلاعاً. قال إنه كان يصطاد الطيور والثعالب. سأله الجد: "وما فائدة المقلاع

وحده في هذه الحال؟" أجاب الطفل: "وما أدراك أنت؟ عندي فخاخ دبقة موزعة على أطراف الجبل!"

ظل طفل المقلاع يراقب الرجلين في صعودهما؛ ولم يكتف بالمراقبة، بل صار يقتفي خطواتهما عن بعد.

- ماذا تريد؟ سأله الأب.

- لا شيء.

- إذن تستطيع أن تذهب!

- بل أراقب فخاخي، حتى لا تدوسا عليها.

جهود مضنية. شرب الجد قليلاً من الماء. بلغوا القمة. لاح الجد أسرع في المنقلب الثاني. كان يهرول وتحته تكر الحصى والحجارة. في أول المنحدر أشار الابن بإصبعه:

- هنااااك... عند السفح... انظرْ... إنها طفلة!

التفت إليه الجد وقال:

- لم أر شيئاً. لكن عليك أن تصيح.

- لماذا؟

- قلْ لها أن تتمهل!

تمتم الابن في نفسه: "بل أنت الذي يتوجب عليه التمهل!" وواصلوا النزول؛ الجد يهرول، الابن خلفه مندهش، طفل المقلاع يراقب. تجاوزهما طفل المقلاع.

كان ينزل ويصعد كما يشاء. لا يحده اتجاه. من الأعلى لاح للابن وكأنه يلتحق بالطفلة الصاعدة. عاد ليقول لهما: إنها لا تصرّ على الصعود، بل أنتما المجبَران على النزول.

- لم أفهم شيئاً! قال الجد.
- وهل من وسيلة أخرى؟ قال الابن.

توجه طفل المقلاع إلى الجد قائلاً:

- أما أنت. فيُخشى عليك!
- ماذا تقول؟ سأله الجد.
- قد لا تبلغها إلا ميتاً، ما دمت تهرول هكذا. أنظر إليها، آه، أنت لا ترى، إنها تتسلق الجبل على مهل.

***

هم الآن، هناك؛ في الأسفل. أما نحن فلنبقَ هنا، كي نُحسن المراقبة من علٍ.

الفصل الثاني

أنا الأرض

بستان وحجارة، بقايا بيوت. رفض الجد المجيء في البداية. يتذكرني، وقد سمّاني أرضه، فيتألم. لِيَدَيْهِ ذاكرة فلاح قديم. تقدّموا بالسيّارة وهو يبكي بدموع صامتة. إنه الجدّ؛ وهو بدايتي الأبعد، أنا الأرض، في ذاكرة الزُّوَّار الثلاثة.

أما الأب فبكى بصمت ليس فيه دموع.

الطفلة التي ليست لها ذاكرة تربطها بي، قفزتْ بين الأشواك والصخور. وحاولتْ أن تُدْنِيَ غصن لوز.

الجد جذع قديم: اتكأ إلى جذع زيتونة غير مثمرة وقال: "آه". فصار شاباً.

الأب صار طفلاً جديداً في بستان قديم. ركض وراء الطفلة. أحس أنها نظيفة أكثر مما ينبغي في هذا البستان المغبر. انحنى وملأ كفيه. ثم رماها بالتراب.

أنا الأرض؛ في حضني استغرب الجدّ: "أعود إليك، وأنا أسوق أمامي جيليْن!"

قال الأب: "أأعود إليكِ طفلاً وابنتي تركض؟"

أنا طفل المقلاع:

هكذا سمَّتْني الأرض؛ لأنني أركض في أنحائها، وأصيب بمقلاعي، ما يزحف عليها، وما يطير فوقها. يهوي الطائر الصريع بحجارتي ويرتطم بالأرض، ويعرج الجربوع والأرنب حتى تميل بهما الأرض وكأنها هي التي تموت.

رأيت الجدّ يميل على ابنه، والأب يميل على ابنته. وكانت الطفلة في مرمى حجري. لم أطلق مقلاعي، لأنها ليست حجلة. لا يمكن القول إن الجدّ موجود لأن عينيه تنظران إلى الوراء، إلى الماضي، والماضي في داخله. وحتى الأب لم يكن موجوداً، رغم أنه يلوح ناتئاً جيداً بين أبيه وابنته. يكفي مثل هذا الكلام "هل هو تراب الماضي هذا الغبار الجديد؟" كان يخاطب نفسه. والجد لا يسمعه. التفَتَ صوبي فالتفتتْ ابنته: "ماذا يريد هذا الولد الذي عنده حبل؟" أجابها: "ليس حبلاً، ذاك

مقلاع". سألتْه بإلحاح: "ما معنى مقلاع؟" أجاب الأب: "الذي يملك مقلاعاً، يحسب الآخرين طيوراً، فيتقدم، ويتظاهر بأنه لا يرانا"؛ "لماذا؟"؛ "لأن مقلاعه هو يده"؛ "وهل يضربنا؟ ماذا سنفعل إذا فعل؟"؛ أجاب: "علينا أن نتظاهر بأننا طيور تنقر الثمار وتتظاهر بأنها لا تراه"؛ قالت الطفلة: "ويكون يرانا ونكون نراه؟" قال الأب: "يشبع من رؤيتنا ونشبع من رؤيته فينسى مقلاعه". سألت الطفلة أباها: "وأنت أيّ طائر ستكون؟"؛ "لماذا؟"؛ "لكي تشبع من رؤيته ويشبع من رؤيتك"؛ "وأنتِ؟"؛ "أنا؟ لقد اخترْتُ الحسون!"

أنا البستان

جاؤوا إلى بضعة أحجار ليسموها بيتاً. جاؤوا إلى سياج من الصبار المتماوت تحت أقدام تين ولوز وزيتون هرم، ليسموني بستاناً. كانت القطعان تعود مع الغروب. لم أعد بستاناً في الجغرافيا. صرنا لغة تذهب وتجيء: يتكلمنا جدّ وأب وحفيدة. نحن مكان وعنكبوت وأرجوحة. الجدّ يدان قديمتان تكتبان كلمة بستان التي هي اسمي. الطفلة تسأل أباها: "لماذا تتفرج على الرتيلاء،

ألا تخاف منها؟" الرتيلاء نزلت من الغصن الذي كانت تتأرجح عليه.

أنا الرتيلاء

اختطفتُ كلمات الطفلة، رتبتها نسيجاً في تقطيبة الأب، ولذتُ بشبكة الصمت التي نسجها الجد. "هيا يا بابا نلعب الغميضة!". قالت الطفلة. الأشجار كثيرة. لعب الأب الغميضة من دون أن يحتاج إلى إغماض عينيه إذْ كان يركض وراءهما. أنا الرتيلاء؛ سأسكت الآن وأترك الكلام لغيري؛ لأن الأب كان يركض في اتجاهين، فسقط في تلك الحفرة.

أنا الحفرة

هل جاء دوري لأقول شيئاً؟ ماذا أقول الآن؟ هل أحكي كيف صرت حفرة؟ اسألوا طفل المقلاع.

أنا طفل المقلاع

جرَرْتُ جذعَ زيتون ميتاً وألقيت به في الحفرة ثم

ابتعدت. تسلق الأب الجذع وخرج من الحفرة. زمجر كلب واقترب منهم. خافت الطفلة. أدرتُ مقلاعي فمزّق الهواء برنينه. أصاب الحجر رأس الكلب. مالت به الأرض. عوى راكضاً وذنبه بين قائمتيه الخلفيتين. اخترقهما الحجر الثاني، فحشر ذنبه بينهما، وهبَّ راكضاً يعوي، هذا الكلب الذي أراد التظاهر بالشجاعة أمام أهل المدينة!

خرجوا من البستان فتبعتهم. سلكوا الثنية المتعرجة المؤدية إلى عين شماس. سألت الطفلة أباها عن شجرة الزعرور والسدرة والبرواقة ثم عن القبور الطويلة. وفي الطريق إلى العين، رأت مزار الولي. فقالت: "بيتُ مَنْ هذا؟" ولفتت انتباهها عشَّة الوليَّة، كوّة من حجارة على مدخل المزار، فيها شموع وبخور. فرّت سنونوات من داخل المزار "ياه! العصافير تسكن هنا! ما هذه الأقمشة المعلقة؟" سألتْ جدها عن أعلام النذور فحاول أن يُفهمها. فقالت: " سأعلق محرمتي وأطلب منه دراجة جديدة، هل هو مثل بابا نويل؟ ما معنى وليّ؟"؛ "رجل كان يبكي كثيراً لأنه يُحب الله."؛ " آه! فهمتُ، أي أنه مثل جديّ! ولمَ هذه الشموع؟" أشعل لها أبوها شمعةَ

غيْرِهِ لأنه لم يأت بشموعه. "وما هذا التراب الأسود؟" فأشعل لها قليلاً من بخور غيْرِهِ. احترق إصبعه الإبهام.

تنهّد الجدّ وقال لها:

- كان أبوك رضيعاً.

- لا يمكن أن يكون أبي رضيعاً.

- وضعتْه زينة على حافة الشباك، في تلك الدار التي رأيتها منذ قليل كومة حجارة.

- أبي لا يسكن كومة حجارة.

- سقط أبوك من الشباك.

- أبي لا يسقط من الشبابيك.

- اسكتي واسمعي بقية الحكاية. بلع أبوك صوته ولم يعد يتكلم.

- أبي يتكلم.

- ما أطول لسانك! حار في أمره الأطباء فأخذناه إلى شيخ عرّاف.

- ماذا تحكي وحدك يا جدي!

قاطعها الأب:

- اسمعي جدك يا جِنان.

تابع الجدّ:

- قال العراف، اسمه لا يواتيه. يكفي أن تغيروا اسمه حتى يُشفى.

- ما هو الاسم الذي لا يواتيه؟

- سفيان.

قاطعته الحفيدة:

- آه! فهمت. طفل المقلاع اسمه سفيان؛ وليس أبي. أنا أيضاً اسمي لا يواتيني؛ خذني إلى العرّاف.

- ما الاسم الذي يواتيك؟

- ألِيسْ.

- لذلك أهديناه إلى هذا الولي. وبعد ذلك استعاد الكلام فصرنا نزوره لنذبح له ديكاً.

- الولي مات.

- لم أكن أصدق مزاعم النساء، وخاصة العجائز، حتى أصابتني مصيبة ذات يوم.

- ماذا أصابك؟

- التَوَتْ رقبتي في المزار بعد أن تهكمت، فقالت العجائز إن السبب هو غضب الولي.

- أيغضب وهو ميت في هذا الصندوق؟

- اسكتي فقد يلوي رقبتك، أو يخطف لسانك!

خافت الحفيدة والتصقت بأبيها. قال الأب:

- لا تخافي. انقطعنا عن ذبح الديك منذ عشرات السنين، لا بد من الإتيان بشاحنة ملأى بالديوك، لتسديد الديون!

قال الجدّ:

- ديك واحد يكفي.

عندما خرج الثلاثة من القبة، انغرزت أشواك في قدم الأب اليمنى. كان يرتدي صندل الصيف في أرض الصيف. تأخر ليزيل الشوك وابنته تساعده. بعد ذلك تركته الطفلة والتحقت بجدّها. رأت نبتة كبيرة وكثيفة، أقرب إلى شجيرة حمراء قصيرة. سألت جدّها:

- ما هذه؟

- يسمونها الحمراء. لأن فروعها الكثيفة المتداخلة تميل إلى الحمرة، وكذلك حبيْباتها الغامقة في أطراف الفروع؛ تلك بذورها التي تطرحها أرْضاً كي تنمو من جديد بعد الصيف. قالت الحفيدة: "أريد حمراء، حمراء". ذهب الأب ليقتلع واحدة لابنته التي ظلت مع جدّها. كان في النبتة الحمراء وكر زنابير هجمت على الأب. قال الجدّ: احترق إصبع يدك، وانغرز الشوك في قدمك، وهاجمتك الزنابير؛ تلك ثلاث علامات! أجاب

الأب: "سوف أجيئه بديوكه الأربعين!" قال الجدّ: "وأنت زميمهم! قالت الحفيدة: "ما معنى زميم؟" أجاب الجدّ: "الزعيم". قالت الحفيدة: "مثل علي بابا والأربعين حراميّاً!" قال الجدّ: "أنت أَلِيسْ، وأبوك علي بابا! ". سألته الحفيدة: "وأنت؟"

أنا طفل المقلاع

لم يكلموني. فسبقتهم إلى العين. تقدموا بين الأشواك. وحاذوا خيط الماء الرفيع المتسلل بين الأعشاب اليابسة. قال الجدّ: "حتى العين شحّت!" استغربت الطفلة: "عينُ مَنْ؟ " قال أبوها: "عين ماء، وليست عين بشر".

أنا العين:

جاؤوا لتسأل الطفلة "عين مَنْ؟ " وليسأل الأب: "أين غزارة الماء؟ أين القفزة الجانبية للسرطان؟ ". وليتنهّد الجدّ: "قلَّ ماؤكِ وشحَّ مائي". الرجل الذي اسمه عثمان يملأ علب البلاستيك... "راح زمن قُلَّة الفخار" قال الجد. كان عثمان يصفّي الماء بمنديل قديم كي يزيل

اليرقات. رد السلام وعلّق: "منْ نِعَم الله أنها باردة في الصيف، دافئة في الشتاء". تحرك الجد والأب في زمنيْن. شربا. أما الحفيدة فقد رفضت أن تشرب من "ماء الدود" كما سمَّتْه.

انصرف عثمان مع حماره المحمَّل بالماء. ولاحت زوبعة تقترب...

أنا طفل المقلاع:

سمَّاني الجدّ طفل العيون. صحت في حفيدته: "قولي لهما إن الزوبعة قادمة!" فلم تفهم ماذا أقصد.

أنا الزوبعة:

لاحت لي عين النبع هادئة، صافية، تحلم في فصل آخر بعيد، تماماً كما قد تراقب وجه من تحبّ وهو ينام. درتُ مثل امرأة أخرى مقلوبة موَّهَتْ جسدها بنسيج نافر، اختطفتْه عَرَضاً من قشّ وغبار.

أسرعْتُ، أنا الزوبعة، بعد أن أخْفَيْتُ جسدي وأظهره القش والغبار، بحركة حلزونية عجولة. زدتُ في التثنّي. ترجرجت في الهواء. تقاطعت مع الثنايا المتعرجة. أبطأت

بتوازن لا تفهمونه، مقلوبةً في عين النبع. تأملتُ وجهي، غسلت شعري، ثم اختفيت تاركة ورائي يرقات الماء في ارتباك كبير.

أنا طفل المقلاع:

صحت في الطفلة: "قولي لهما أن ينتظرا حتى يهدأ كل شيء!"

أنا العين:

عندما انجلى سطح الماء بتموُّج خفيف، دفعتُ بماء جديد، فيما ظل أثر ضئيل من مرور الزوبعة، يختلج متردداً على جفوني الصخرية.

أنا طفل المقلاع:

سألتني الطفلة التي لم تألفني حتى الآن: " لماذا تتْبعنا صامتاً ولا تتكلم؟" قلتُ لها: " بل تكلّمتُ كثيراً!" عادت لتسألني: "وما هو اسمك؟ " قلتُ: " لقد سمّاني أبوكِ طفل المقلاع، وسمّاني جدك طفل العيون؛ المقلاع يحبّ العيون لأن الطيور ترتادها: هنا نلتقي كلّنا." ولم

أُخْبِرْها بأنها بعد قليل سوف تسمّيني "زوبعة". قالتْ: "لماذا كنتَ تنحني كثيراً في الطريق؟ ماذا كنتَ تجمع؟" فتحتُ زوَّادتي وأَرَيْتُها ما فيها. عادت إلى والدها وأخبرتْه: " ذلك الطفل ساحر؛ يجمع الحلازين والدود وقطع البلور الملوَّن. أرسلتْه الساحرة. لا! هو نفسه عصا الساحرة الشريرة التي تحوَّلتْ إلى طفلٍ وأتتْ بالزّوبعة إلى العين. كان جذع زيتونة فحوَّلَتْه إلى طفل! " أجابها أبوها: " لكنه ليس شِرِّيراً؛ لقد ساعدني في الخروج من الحفرة عندما ألقى بجذع الزيتونة! " قالت: "ثمة ساحرتان تتعاركان؛ مرّة تستولي عليه الساحرة الطيّبة فيساعدنا، ومرة تقوده الساحرة الشريرة فيصنع زوبعة! ماذا سيصنع بقطع البلور؟" أجابها أبوها: " لا أدري، ربما كان يستخدمها في الصيد ليخدع القبَّرات..."

ابتعدوا قليلاً عن العين، متابعين مجراها الضعيف. قفزتُ على الصخور وغنَّيْتُ:

أطلّتْ شَرَقْرَقَتي:
جاء فيها السّحاب
أنا من أنا؟
أبو الحِنِّ يوماً،
أبو الجنِّ يوماً،

وحسّون هذا التراب!

ركضتُ نحوهم، ثم تجاوزتهم مخاطباً تلك الطفلة: "ومن غيركِ الساحرة؟ إليك بهذا اللغز إنْ كنتِ ذكيّة: مَنْ هو أبو أبيكِ وابن جدّك؟ ولا تقولي إنه أبوكِ الذي معك!"

أنا جِنان:

أبو أبي هو جدّي، وابن جدّي هو أبي، ويقول لي: لا تقولي إنه أبوكِ الذي معك! فمن هو الشخص الثالث الذي أتى به من عنده؟ حيَّرني ذلك اللغز، فسألت جدّي وأبي. أجاب بابا: "لقد عقَّد اللغز بشرطه." وقال جدّي: "هذا الطفل مجنون، والوسخ الذي على رقبته يُمكن أن يُقَشَّر بسكين!"

أنا طفل المقلاع:

سمعتُ ما تلفّظَ به الجدّ. فكيف رأى وسخي وعيناه ضعيفتان؟ غضبْتُ. قفزْتُ قفزة الشيطان، امتطيت ظهر الجدّ. أمسكت بكتِفَيْه لحظةً، فكاد يسقط أرضاً. صاح:

" ابعدْ! يلعن بوك يا شيطان! " غضبتْ جِنان بدورها وصاحت: هل أنتَ الشيطان؟ سأرجمك بحجر يا زوبعة!" وهكذا أطلَقَتْ عليَّ اسماً جديداً، هي الأخرى؛ اسماً كنتُ أتوقّعه. فقفزْتُ عن ظهر الجدّ وعدْتُ أغني:

كنتُ أختال بمقلاعي ودِبْقي
أرتوي من نبعِ ماءٍ عن يميني
وأُحَيِّي نبعَ ماءٍ عن شِمالي
عندما جئتم تدوسون جبالي...

أنا جِنان:

لم يلبث زوبعة حتى عاد. أراد بابا أن يطرده. لكنه دسَّ يده في زوَّادته، وأخرج منها حسّوناً مرتجفاً. قدّمه لي قائلاً: "هذا حسّون لك. ولا تنسيْ، عندما تعودين إلى داركم، أن تربّي فكْرُوناً!" تناولتُ منه الحسون من دون أن أخفي خوفي، فقال لي: لا تخافي! حتى نقْرته لا توجع!" فخفتُ أكثر. سألْتُ بابا: "فكرون؟" فقال لي: "نعم، سلحفاة". عدْتُ إلى زوبعة وسألته: "ولماذا أربّي فكروناً؟" أجاب: "لأن الفكرون في البيت قمر!"

ضحكتُ فأضاف يقول: "لكنه قمر مطفأ! ضعي على ظهره شمعة!"

تابعنا سيرنا، فغافلنا زوبعة مرّة أخرى؛ اقترب مني. شدَّني من شعري. جرَّني منه، قبل أن يهرب قائلاً: "عرفْتُكِ، فصرْتُ أقشعرُّ منك!"

أنا الحسّون:

مازلتُ دَبِقاً، وهي تسألني لماذا يلتصق ريشك بأصابعي؟ وتقول لي: لا أستطيع ترْكك هنا، لن تقدر على الطيران. وتسألني: هل تريد أن أنظف لك ريشك في البيت؟ فأقول: أستطيع تنظيفه وحدي. وتسألني: كيف؟ فأجيب: بمنقاري. فتحتجّ: ليس عندك صابون ولا شامبو، وقد تحتاج إلى وقت طويل، فيأتي الثعلب ويأكلك، أو يعود إليك زوبعة!

أنا جِنان:

- بابا، أريد قفصاً.
- ومن أين آتيك بقفص ونحن في هذا الخلاء؟

أنا زوبعة:

ركضتُ وعدت بعلبة قديمة. ثقبتها بسكيني في أكثر من موضع. وقدَّمْتُها للطفلة: "ضعيه هنا حتى يتنفّس ولا يختنق!"

أنا الغروب:

مِلْتُ، فمال كلّ شيء...

أنا زوبعة:

حلَّ الغروب! ينبغي أن أُسرع حتى لا أفوِّت موعدي مع البومة!

أنا جِنان:

رأيت الليل قادماً.

أنا الليل:

رأتْني هذه الطفلة قادماً، ولم ترَ الزمن؛ لأنها مازالت تتقدم في خمسة بالمائة من دقّات الساعة العملاقة التي تؤرِّخ لحياتها المقبلة.

أنا جِنان:

في تلك الليلة هرعنا كلنا إلى الغرفة التي ينام فيها جدّي. كان يصيح ويشتم. وقد رمى الغطاء ومزّق الستارة لكثرة ما شدّها. وعندما أيقظناه، قال: "لعنة الله على الشيطان!" سألتُ بابا: "أتَذْكُر ذلك الشيطان زوبعة؟" أجابني: "ليس هو السبب." إذن، سألته: " أتذكر تلك العين؟ دودها يعمل الكوابيس!"

ماذا تفعل العين الآن؟ وماذا ستفعل وحدها في الشتاء؟

أنا الحكاية:

أنا الحكاية التي تريد أن تصير كتاباً. أحبّ أن أتحرّك كما أريد، وألعب معكِ لعبة الغميضة؛ لذلك أجرّك إلى الزوايا. لقد عرَّفْتُكِ على طفل. وسوف نتركه قليلاً، لأنه ذهب إلى موعده كي يفاجئ البومة في عشها. عرفتِ حتى الآن أن له أسماء كثيرة؛ فهو على لسان الجدّ: طفل العيون، والشيطان؛ وعلى لسان الأب: طفل المقلاع والينابيع والبساتين؛ وعلى لسانك: مرة؛ زوبعة، ومرة؛ عصا الساحرة. أما أنا فأسميه كما أشاء. سوف أعلِّمك

أسماءه الأخرى فيما بعد. لكنني أوصيك بشيء مهم، إنه سرّ بيننا؛ أنصتي جيّداً: بقدْر ما تسألين عن زوبعة أكتملُ أنا كحكاية. إذاً، علينا أن نتعاون! وهكذا أذهب إلى رأسك فأجده يطلب المزيد!

اسألي كل يوم سؤالاً لأصير حكاية. ولا تنسي كتمان السرّ!

وفي الأثناء، استيقظي صباحاً على شدو الحسون. واستمعي إليه جيّداً قبل الذهاب إلى المدرسة. سوف يعلّمك الكثير. ضعيه في قفص جميل، وزيِّني القفص بخرز وشرائط. والآن أريد أن أدلَّكِ على حيلة ظريفة: هاتي مرآة صغيرة وثبِّتيها على قضبان القفص. سوف يقترب منها الحسّون بعد أن ينتهي من قيافته وغسل وجهه بالماء. وتحدث المفاجأة.

أنا الحسّون:

ملتُ بعيني اليمنى، وغمزت الحسّونة التي فاجأتْني هذا الصباح متأنّقةً، لامعةً. عدتُ وغمزتها بعيني الثانية، نقرْتُها مداعباً، فوجدتها أصلب من أي أنثى حسّون شاهدتها في حياتي! لم يطل بي الوقت حتى اعتدْتها كما

هي: أنثى تتحرك كثيراً لكنها لا تتكلم ولا تغني. وأكثر من ذلك لم أتمكن من أن أشم لها رائحة. فكيف تسرَّعْتُ وحكمتُ بأنها أنثى حسون؟ في الليل فقط أسمعها تكلمني في نومي، وتخاطبني بلغة حسونة حقيقية!

أنا الحكاية:

نعم. هذه أنا، أعود إليك. لنترك الحسون ومَرْأتَه، أقصد: مِرْآته، إلى مناسبات أخرى، وننتبه إلى أهمية السلحفاة. لقد نصحك زوبعة بأن تشتري فكروناً. وأنا، بما أنني حكاية بنت حكاية وأخت حكاية، أعرف جيّداً أهمية السلاحف في الواقع كما في الحكايات. وهي في الواقع تجلب الحظ للبشر. هكذا يقولون منذ قديم الزمان، وهكذا تقول الحكايات القديمة أيضاً. أما نحن فلسنا حكاية قديمة. لذلك سوف نجد للفكرون وظائف جديدة: أولاً، نتسلّى به؛ ثانياً، نراقب طباعه، ونتعرف إلى سلوكه، وأكله، وحيَله إنْ كانت له حِيَل. وليكُنْ في علمكِ، مادمتِ صغيرة، أن الفكرون في الحكايات منسوب إلى الحكمة: أولاً، لأنه منسوب إلى ما يحاذي الخلود، إذْ يمكنه أن يعيش مائتيْ سنة؛ ثانياً، لأن جده

الأول تمكّن من سرقة ما استطاع سرقته من أعمار الأقدمين قبل سفينة نوح عندما كان الأنبياء يعيشون مئات السنين - لا تسألي عن سفينة نوح الآن، حتى لا ندخل في حكاية جديدة، ويمكنك على أية حال أن تسألي عنها جدك أو أباك، لأنها قصة قديمة معروفة، وأنا، كما قلت لك منذ قليل، حكاية جديدة- ثالثاً، لأن جدّاً آخر من سلالة الفكرون استطاع لاحقاً أن يسبق أرنباً- كيف؟ لا تسأليني، بل اسألي أباك، فهو يعرف الحكاية- لهذه الأسباب، ولأسباب أخرى كثيرة، أنصحك بأن تطلبي من أبيك وأمك أن يشتريا لك سلحفاة، بل فكروناً- أنا كحكاية بنت حكاية تمتد جذورها الأولى إلى زمن سحيق، أفضّل اسم فكرون على اسم السلحفاة، لماذا؟ أولاً، لأن كلمة فكرون، جاءت على وزن كل ما هو فعلون؛ ثانياً، لأن الفكرون يتضمن في حروف اسمه كلمة فكر، أي أنه يفكر، ومن هنا بعض ملامح عبقرية لهجتك العامية. وأذكّرك بأن فيها، مثل كلمة فكرون، مَثَلاً شعبيّاً ذا علاقة بالفكرون، وإنْ جاء مشكّكاً في قدرات الفكرون المسكين وعلومه، تريدين ذلك المثل؟ هوذا: سُئِل الفكرون: يا فكرون هل تعرف العلم؟ قال: أزيد فيه! "؛ ثالثاً... اعذريني، لم أجدْ ثالثاً!

لهذه الأسباب كلِّها، ولأسباب سوف نجدها معاً فيما بعد، أنصحك بالحصول على فكرون مهما كان الثمن. ويمكنك أن تجدي له اسم دلع أيضاً، مثل... مثل... كَكُّون المفكِّر! قدّمي له الخس، والخبز المبلول، وحتى العنب والرمان. وجرّبي كل شيء، فهو يعرف ماذا يأكل.

والآن قبل أن أتركك لتنامي، سأتّفقُ معك على كتْمان سرّ آخر- أنت تحبّين مشاطرتي الأسرار، أليس كذلك؟ هذا جيد؛ عندي منها الكثير. ولكنني، في هذه المرة لن أبوح لك إلا بسرّ وحيد، يتعلق بالفكرون. إنتبهي جيّداً! إنه سرّ خطير! وقد يتسبب لك في عقوبة أو في كارثة! هوذا: عندما يحلّ الظلام، أشعلي شمعة، وثبِّتيها بما يسيل منها، على ظهر الفكرون، كما قال لك زوبعة. سوف ترينه يشقّ الظلام مثل ساحرة صغيرة تدبّ على الأرض! أعود وأكرر لك: لا بد أن تنتبهي! فقد يتسلل الفكرون تحت الفراش، وقد لا يسعف الوقتُ أمَّك كي تُسرع وتصيح مرتعبةً: "ماذا تفعلين يا مجنونة؟ ستحرقين البيت!"

أنا جِنان:

حيَّرني هذا الحجر الذي قيل لي إنه بيت الفكرون، وإنه يكبر معه. هل يكبر الحجر؟ لوَّنْتُ كلَّ مربّع في بيت الفكرون بلونٍ مائيٍّ. حرتُ أيضاً في اختيار اسم له؛ أأسميه "القمر المطفأ" كما وصفه زوبعة، أم "الساحر الصغير"؟ "هل أسميه" أليس "وأسمِّي الحسّون" زوبعة"؟ كلا، وجدت الاسم، وجدته! رأسي قال لي: سمِّيه "كَكُّون المفكِّر"!

الفصل الثالث

يوميات جِنان

أنا جِنان:

خرجت "ألِيسْ " من بلاد العجائب. وجاءت لتلعب معي. قلت لها: "اسمي لا يعجبني". سألتني أليس مستغربة: "كلّ اسم يمكن أن يعجب صاحبه، فلماذا لا يعجبك اسمك؟"؛ "هكذا... هكذا..." قلتُ، فقالت أليسْ: " أي اسم يعجبك إذن؟" أجبْتُ: "يعجبني اسم أليس" ردّت أليس: "لكن عندما تنادينني أليسْ لن أجيء!" سألتُها: "لماذا؟" قالت: "لأنني سوف أقول عندئذ هذه الطفلة اسمها أليس وهي تنادي نفسها!"

حينئذ قلتُ لها: "كان عليهم أن يتركوني بلا اسم حتى أكبر واختار إسماً لي..."

***

أنا كيس السكَّر. أتى بي بابَا مثقوباً. سألتني جِنان: "ماذا تفعل يا كيس السكر، لماذا تُخرج سكّرَك مستعجلاً، بهذه الطريقة؟" أنا كيس السكر أجبتها: "أنا لا أخرج مستعجلاً، أنا أضحك فقط!"

***

أنا جِنان. رسمت لوحة فيها عين ماء وأشجار. وفي زاوية اللوحة رسمت طفلاً يحمل زوادة ومقلاعاً. سألني: "من أنا؟ لماذا رسمتني في هذه الزاوية؟" قلت: "أنت زوبعة، طفل المقلاع، جئت لتتفرج على اللوحة ثم تشتريها".

***

نحن مكتب وأقلام وأوراق. قلنا لجِنان. أبوك سافر إلى المغرب ونحن نريد أن نكتب قصيدة أو حكاية. قالت جِنان: "سأساعدكم حتى يجيء بابا".

أنا المكتب. جلست جِنان إليّ متدلية الساقين. أنا الأوراق رَتّبتني جِنان. أنا القلم حركتني على الورقة فكتبت:

"هل للنهر عيون؟ كيف يرى طريقه ويسير؟ "

"وأنت أيها القلم الأزرق، فيك البحر والسماء."

"وزْنُ النملة عندنا يساوي صفراً. لكن ما وزن النملة بالنسبة إلى النمل؟"

"وأنت يا طفل المقلاع لماذا تصير غراباً في الليل وتذهب إلى موعدك مع البومة؟"

أنا ورقة أخرى. كتبتْ عليَّ جِنان: "يا صرصور! أصحيح أنهم دائماً يكرهونك ويقتلونك لأنك ساكت لا تتكلّم؟"

***

أنا جِنان. صار لي ثلاثة رؤوس لأني أكلت مثلّجات في الشتاء.

***

أنا الحسون. جِنان ترسم، وأنا أشدو وأصمت. أعبث في الهواء بريشي. أنقر إغفاءة التين، مرح الفقوس والخس. أبعثر نوم الزؤان، طالباً من بلاد الطيور البعيدة، حبة النيجر والبشتة النجيلية، شوفان البراري واليانسون، سلجم الحقل والجريش، شنارق القنب وبذرة الكتان.

في الخريف، أمام قطعة من سكر النبات، أُهمل إيقاعي، كي أفرز جنس كل محصول، وأفك لغز كلّ بذار.

***

أنا الفكرون. غادرنا البيت القديم وكان أوسع من هذا. قالت لي جِنان: "مساكين جيراننا، ظلوا هناك وحدهم! " البارحة نسيتْ أن تفرك أسنانها فقالت لي: "ستصير لي سوسة يا كَكّون المفكِّر. سوف تسكن السوسة في ضرسي وتحفر فيه حفرة كبيرة. فأسقط في الحفرة ولا يجدني أحد. إسمع يا كَكُّون! هل أنت مثلي: عيناك تريدان النوم ورأسك لا يريد؟ عندما يجيء الربيع هل أصير ولداً. هل يصير الصبيان بناتاً والبنات صبياناً؟ هل تريد خساً؟ هل تريد ماءاً؟ الكاكا تريد أكلاً، والبيبي تريد ماءً. قطة جارتنا عيناها زرقاوان وعندما تكبر سوف تصير فرنسية. أنا، عندما أكبر، أريد أن أصير يابانية. أريد أيضاً رِجْلاً ثالثة. وأنت ما لون عينيك يا كَكُّون؟ هل رأيت حبة حمص عارية؟ هل تأملت جيداً إجاصة عارية. كلتاهما تتعرَّيان. ألم تلاحظ أن لحبة الحمص مؤخرة، وكذلك الإجاصة؟ الجدار يناديني. الدجاجة يداها ريش. هل للبقرة يدان؟

***

قبل النوم، ذهبت جِنان إلى ماما. شدت عينها اليمنى بسبابتها اليمنى وشدت عينها اليسرى بسبابتها اليسرى.

قالت بعينيها اللوزيتين المشدودتين إلى الخلف: "أريد أن أصير يابانية" سألتها ماما: "لماذا؟ ما هذه الفكرة الجديدة؟"؛-اليابانية عيناها جميلتان" - وأنت أيضاً، عيناك جميلتان! - لا، أنا أريد عينين يابانيتين، لماذا لم تلديني بعينين يابانيتين؟ أجابتها ماما: "لا أستطيع، لأنني لست يابانية، ولا حتى صينية، وكذلك أبوك". سألتها جِنان: "وهل الصينية أيضاً عيناها مثل اليابانية؟" "-نعم" "-إذن، لماذا لم تلديني صينية؟"، "-لا يمكن". سكتت جِنان قليلاً ثم قالت: "هيا بنا نسافر إلى اليابان لتصير عيناي يابانيتين!"

***

أنا محفظة جِنان. عندما نعود من المدرسة، في الطريق، تتركني على الأرض، تبتعد عني خطوتين وتناديني: "هيا يا محفظتي!"

فكيف أمشي وأنا محفظة فقط؟

***

أنا جِنان. عندي مشكلة، سوف أبعث بها إلى مجلة "ماجد".

- وما هي مشكلتك؟" سألتها ماما.

- معلمتي، تضع يدها على الطاولة وتنام في القسم.
- وماذا سأفعل أنا؟
- أنجبي لي أختاً.
- موافقة.
- أريدها كبيرة لتلعب معي.
- لا يمكن...
- إذن اشتري لي واحدة!
- من أين؟
- من السوق!
- كيف تريدينها؟ ما أوصافها؟
- شقراء، زرقاء العينين.
- هذه غالية جداً.
- إذن أعطيني ديناراً فقط.

***

أنا الفكرون. أنا البطيء. نجحتُ نجاحات قليلة، لكنها كرَّستْني بطيئاً. وبالوراثة تأخر سير أحفادي. ورغم أن لنا جداً سبق أرنباً، لن يُطلَّ أحفادي من السباق. أطلُّوا أم لم يُطلُّوا. وكان جدّنا الفكرون قد سافر كي

يعود. وحتى حين عاد، لاح كأنه لم يعد. ظلَّ يسترجع المجيء. مع أنه قال: فاجأتُ أحفادي.

لئلا تنساني لا تسابقني، لئلا أنساك لا تفاجئني.

كلما لاعب الجد منا حفيداً، صار خفيف العظام.

وفي غياب حفيدي، وقَّعْتُ هذا الكلام، بطينٍ ملء خطاي: أنا البطيء، البطيء!

***

– أنا طفل المقلاع. جئتكِ في الحلم. هيا استيقظي لقد جاء نقّار الخشب.

– لماذا جاء نقار الخشب؟

– جاء يبحث عن دودة.

– وهل توجد دودة في الشباك؟

– دودته النقر عن دودة لا توجد.

– إذن هو الدودة.

– لماذا؟

– لأنه يأكل الخشب.

– لا يأكله. أتعرفين لماذا سُمِّيَ نقار الخشب؟

– لماذا؟

– لأنه يشتغل نقار خشب. وهل تعرفين من يناديه؟

- لا .

- الخشب طبعاً .

***

- أنا طفل المقلاع عدت إليك في الحلم .

- بمَ جئت تخبرني هذه المرة؟

- ركضت بين الأشواك وأمسكت بسرعوفة من ظهرها .

- ما معنى سرعوفة؟

- ناقة أخوالي، أو فرس النبي. . . وهناك من يقول الراهبة، أو عصا الشيطان!

- وهل يركبها أخوالك؟ أو كان يركبها النبي؟ لماذا اسمها كذلك؟

- أَسألُها : يا ناقة أخوالي وين دار خالي؟ فتجيب .

- كيف تجيب؟

- تحرك إحدى قوائمها باتجاه دار خالي!

- اسألْها إذن!

- عليّ أن أضغط على ظهرها بإصبعيّ : يا ناقة أخوالي ورّيني دار خالي . انظري لقد أشارت إلى هذا الاتجاه .

- وهل دار خالك هناك؟

- لا، عليّ أن أدور قليلاً كي تعرف السرعوفة الاتجاه الصحيح.

دار طفل المقلاع قليلاً ثم سأل جِنان:

- هل تعرفين أن السرعوفة تأكل زوجها؟

- كيف عرفت؟

- من هذه الحكاية الصغيرة:

قال ذَكَرُ السرعوفة:

- في حياة أخرى كنتُ إبن أمي بعد أن مات أبي، والآن احكي في عروق امرأتي"

قالت السرعوفة الأنثى:

-آكل لذتي ولا أتركها لضرتي.

عندئذ تدخّل الأولاد وسألوا أمّهم:

- ومتى نؤكل نحن؟

قالت السرعوفة الأم:

- تناولوا طعامكم الآن، عليكم أن تشبعوا، حتى تعود البنات من الصيد.

قال الأولاد وقد تذكروا أباهم الذي أكلته أمّهم:

- أسْمعينا صوته مرة أخرى، لقد اشتقنا إليه ونحن هنا قاعدون".

قالت جِنان:

- أنت ضعيف وتشبه ناقة أخوالك!

غضب طفل الينابيع غضبة شديدة. فحاولت جِنان أن تسترضيه، وسألته:

- لماذا غضبتَ؟

أجابها ضاحكاً:

- خفْتُ أن تأكليني!

أنا الشتاء:

أنا الشتاء؛ لصالح الأبناء، وفي كلِّ رعشةٍ، أكذب على الآباء. في كلِّ رعشةٍ، خطوةٌ لأولئك، وخسارة لهؤلاء. هكذا تتواصل الحياة.

قبل أن أصير شتاءً، ظل الفكرون، البطيء بطءَ الحكمة، يفاجئهم في البيت، ثم يغيب قمراً مطفأ في الليل والنهار. لا شك أن الثعلب جائع وبقيةَ رُسُلِ الخصب نائمون. الخفاش يتدلى في الكهوف. والقنفذ ينام في تجويف شجرة.

ما أبعد جرذ المرموط والخُلد والسنجاب!

حتى الدبّ بعيد في فروته: قوة قابلة للرقص. لكنه

يستعيد نوم الجنين في الرحم. لذلك تتبناه الطفلة وتسميه.

أقرب منهم حكمة الفكرون، وكذلك الحكمة الحلزونية، إذ تنقطع حركتها اللولبية فجأة في أعلى الصّدَفة، مكتفية من الحياة بسماءٍ جدِّ واطئة.

الحلزون: لا هو ذكر، ولا هو أنثى.

هو أنثى: تسكن شكلها ورطوبتها مهيِّئةً قوةَ امتصاصها.

هو ذكر: يمزق نوم البيات الشتوي كي يتمدد ثم يتقلص على منزلقات الربيع المخاطية.

إنه خنثى الليل والنهار في تسلق مدارج الحياة.

إنه يغفو الآن في فجوات الجذور والمخابئ الكلسية بينما الفكرون في زاوية من بيتهم، والثعلب والسمنة ينقبان تحت الحجارة.

الفصل الرابع

يوميات جِنان (2)

أغمضْ عينيك

في الحمّام غسلت جِنان شعر بابا بالشامبو وقالت له:

- أغمضْ عينيك!

انصاع بابا إلى أمر جِنان:

- ها أنذا أغمضت. . .

عندئذ سألته جِنان:

- بماذا تحلم الآن؟

تونس

وضعت جِنان إصبعها على نقطة في الخارطة متسائلةً:

لِمَ إصبعي أكبر من تونس؟!

تعريف المغنّي

قالت جنان وهي تتفرج على أغنية تعرضها التلفزة: المغنّي إنسان لا يشبع من المحفوظات.

جِنان ضاعت

ضاعت جِنان في مدينة الألعاب. فزعت أمها. وعندما وجدتها سألتها:

- ماذا كنت تفعلين؟
- كنت أبحث عن أمّ تمشي من دوني.

أماني العضّاضة

مازالت لجِنان آثار عضة من أيام الروضة، عضتها أماني المجنونة، ذهبت أماني إلى حقيبة جِنان وأرادت أن تأخذ منها شيئاً. دافعت جِنان عن حقيبتها، فهجمت عليها أماني وعضتها بعنف. سال دم كثير على صدر جِنان. غضب بابا وعاد إلى المروضات. هذه روضة أم مأوى للجانحين؟ هدأ قليلاً وقال: سأقدم قضية بروضة البلدية. لكنه لم يفعل كعادته!

أسنان أماني نبتت.
ومازالت لجِنان نقطتان داكنتان.

في المدرسة

تعلمت جِنان في المدرسة أشياء جديدة ونسيت أشياء قديمة. لم تعد ترسم بتلقائية. وعندما تعود للبيت ترى بابا يكتب دائماً، فتسأله:

- كل الناس الذين كبروا أكملوا الدراسة! وأنت مازلت تقرأ؟

كانت ترسم لوحات تجريدية كثيرة. وذات يوم زارت معرضاً للرسم مع بابا فاكتشفت أن اللوحات تباع بأسعار باهظة، قررت أن تضع أسعاراً بسيطة على لوحاتها كي تباع بسرعة.

أما في المدرسة فصارت تبكي لأنها لم تستطع رسم رمز البيئة وحارسها: "الثعلب لبيب". قررت جِنان التخلي عن الرسم الحرّ وكلفت أمها برسم ما تريده منها المعلمة: الثعلب لبيب، والأطفال، والحيوانات... وحتى الأرض والسماء.

المدرسة نفت ما كان موجوداً، لتؤسس ما كان مفقوداً.

مسرح

ذهبت جِنان إلى المسرح. ظلت صامتة في أوج الضجيج. العرض العراقي صامت. في نهاية العرض وزعوا البالونات على الأطفال. جِنان حصلت على بالون كان قرب لمبة الضوء. كان محترقاً قليلاً وسوف ينفجر في الشارع وتبكي.

العرض الإيطالي: جمهور أطفال أكثر. ضجيج. أطفال حومة. أطفال كرة قدم، بنات يصفِّرْن. عراقيّ يقول "ولا!" فلسطيني يترجم للعراقي.

رفضت جِنان إجراء مقابلة تلفزية لإعطاء رأيها؛ هربت إلى الصفوف الخلفية حتى لا تجيب عن الأسئلة.

تشويق

جاءت جِنان وسألت بابا:

- ما معنى تشويق؟

أجاب بابا:

- مثلاً، أقول لك: "يا جِنان اشتريت لك هدية" وأُخفيها عنك، فتتشوقين لمعرفتها.

قالت جِنان:

- وأين الهدية؟

قال بابا:

- الهدية مثال، مجرد مثال.

قالت جِنان:

- أحب حكايات زوبعة، طفل المقلاع، وأنت لم تحك لي عنه: هذا تشويق أيضاً!

- نعم.

اضربيني

حل عيد الأضحى. جاءت صديقة جِنان وقالت لها:

- اضربيني!

سألتها جِنان:

- لماذا أضربك؟ أنت لم تفعلي لي شيئاً!

- الخروف سيذبح، وأنا أريد البكاء عليه ولا أستطيع: اضربيني كي أبكي...

في الحملة الانتخابية

ذهبت جِنان إلى مكان الحملة الانتخابية فحصلت على هدايا كثيرة. ونقشت لها امرأة كفها بالحناء. غابت المعلمة وجاءت معوضة. اعترضت المعوضة على الحناء. تناولت جِنان الإسفنجة المعدنية وحكّت الحناء حتى أدمت جلدها. ذهبت إلى المدرسة ويدها مسلوخة.

ديمقراطية

فاجأت جِنان بابا بسؤال صعب:

- ما معنى الديمقراطية؟

قال لها:

- لا بد من مسرحية صغيرة، ثم تكبر، لنفسّر الديمقراطية.

فكر بابا قليلاً وأضاف:

- لنبدأ بالحرية.

اعترضت جِنان قائلة:

- الحرية سهلة.

فسر بابا معنى الديمقراطية بمثال من البيت. لكن

جِنان تثاءبت عندما حاول ربط الديمقراطية بالمسؤولية. ثم أدركت أن بابا هو المسؤول عن الديمقراطية في البيت.

الديمقراطية أبوَّة حقيقية!

الفرنسيون عرب

سألت جِنان جدها:

- كيف أتكلم الفرنسية؟ لا أعرف إلا "بون جور"!

- بل تعرفين أكثر: تكسي، تران، بسكليت، فريجيدير، برابول، دوش...

استغربت جِنان وقالت:

- لكن هذه كلمات تونسية! لماذا يقلدنا الفرنسيون؟

- بل هي فرنسية ونحن الذين نقلدهم.

أنهت جِنان الحوار قائلة:

- الفرنسيون إذن عرب لوَّنوا عيونهم باللون الأزرق!

كيف كنتُ صغيرة...

رأتْ جِنان رضيعاً؛ سألتْ بابا: "كيف كنتُ صغيرة؟" قال:

- كانت لجِنان يدٌ صغيرة، قوية، تضغط بشدة على كل الأشياء التي تأتي وحدها، مثل إصبعي الكبير، وطرف اللحاف، والحشرة المتجوّلة، أو الأشياء التي تبكي لها جِنان كي تناديها، مثل كوكب الحليب والعسل. لها خمس أصابع ما زالت في طور براعم الدالية المتسلّقة. وفي طرف كل إصبع ظُفْر يحتاج إلى مجهر. شكله أقرب إلى المربّع. منصّات ضئيلة تقف عليها كائنات لا نراها. قُلامات مائلة تخبّش الكبير وتجرح الصغير. تجرح خدّيْها أوّلاً عندما تبحث عن الإبهام المنذور لتثبيت مسامير كثيرة. أما ظفر الخنصر فذاك نقطة في سطْرٍ أخير. تجتمع الأصابع الأربع ويظل الخنصر ساهراً أو تائهاً. وأخيراً يلتحق بإخوته وينام عند العتبة. الإبهام ينام فوقهم نومةً مائلة. عندما تتمطى جِنان تفزّ كل الأصابع من نومها دافعة بالأخ الأكبر.

- هذه اليد والأصابع؛ أين البقيّة؟

- فمها مثل عجوز بلا أسنان لكي تكسر البندق. عيناها واسعتان، مثل عيون كل الأطفال الذين يُولَدون بعيون الغد، قبل أن تتقلص مع اتساع الوجه وظهور الغد.

تفتح عيْناً ثم أخرى؛ وكأنما واحدتهما تُخبر الثانية. فتقاومان الضوء قليلاً. ثم تلتقطان العالم، أو ما تيسّر منه، برقّتين. الأنف مخبّش: تلك أفعال القُلامات المتأرجحة الباقية. هئ! هئ! حازوقة، شهّيقَة. الأنف يهتزّ. الجبين يتغضّن مهَدِّداً بالتفكير، فيقترن الحاجبان في موعد، في زاوية. وينام كل شيء. بينما يظل القلْبُ ينبض في العنق تماماً، والرأس يذهب ويجيء...

انتهى بابا من وصف جِنان فعلَّقتْ قائلة:

- كنتَ تتحدّث عن أخي، ألَيْس كذلك؟

عملية جراحية

كان على النقَّالَة الكبيرة اثنان صغيران. دفعت الممرضة النقالة حتى المصعد الكبير. لم تبكِ جِنان. ظلّتْ تنظر مدهوشةً إلى كلّ ما يجري حولها. كلّما تقدّمت الممرضة احتضنت جِنان دبدوبها البنّي أكثر. كان الدبّ الصغير يبدو كأنه نازل، بعينين شاخصتيْن، إلى القبو الكبير، ليستأصل لوزتين مزعجتَيْن.

الدب البنّي الصغير شهد أطوار العملية كلّها، وظلّتْ عيناه شاخصتيْن.

العمليّة "الكبرى"

اشتكت جِنان من ألم فوق مفصل الفخذ.

تحذير أول:

قالت الجارة: " ابنتي اشتكت مثلها، فكان لا بد من استئصال الزائدة. انتبهوا إليها، إذا أُهْمِلَتْ قد تنفجر! "

تحذير ثان: خافت ماما كثيراً. كنّا في ضيافة صديقنا طبيب الأسنان قال: " ابنتي أيضاً اشتكت من ألم فوق مفصل الفخذ، فكان لا بد من استئصال الزائدة؛ ماذا تنتظرون؟ "

ولأنه طبيب فقد أرفق القول بالعمل: اتصل صديقنا طبيب الأسنان بطبيب آخر صديق له. وكان، من باب المصادفة الليلية تلك، طبيباً زنجياً. وهو أمر نادر. فأكد، بعد فحوص متكرِّرة لم تخْلُ من تردّد، أنها الزائدة اللعينة!

في الليل ساق بابا سيارته وراء سيارة الطبيب حتى مصحّة الحرية. كان بابا يفضّل مصحّة أخرى يعرفها. لكن الطبيب أراد الذهاب إلى المصحّة التي يتعامل معها. كانت ماما خائفة. قال بابا: حكى لي صديقي الشاعر، أنهم أوصلوه حتى باب غرفة العمليات، فهرب قائلاً: "لا

أشكو من الزائدة! " وتبيّن وهو يحكي لي أنه لا يشكو من الزائدة، فنجا بزائدته.

فحوص أخرى. تحاليل. صُوَر أشعة. نُوديَ أطبّاء آخرون في منتصف الليل؛ أحدهم نسيَ هاتفه الجوّال على سرير جِنان. لكن جِنان لم تلمس الهاتف الجوّال. وعندما أُنْزِلتْ إلى قبو المصحّة من أجل أشعة أخرى قرب غرفة العمليات، قال بابا، وفي ذهنه صديقه الشاعر الذي نجا بزائدته: " لن تُجرى العملية، لن أوافق إلا في الحالة القصوى. " أُعيدتْ جِنان إلى غرفتها. وقال الأطبّاء بالفرنسية والتونسية: " لابد أن تنام في العيادة وتظل تحت المراقبة حتى الصباح. " هكذا هدأ بابا. وقالت ماما: " ابنتي صغيرة، لا بد أن أنام عندها. " قالت المصحة: " الأم أيضاً تدفع ثمن نومها. " غضب بابا وقال: " هذا فندق أم مصحة؟ " همست له ممرِّضة هادئة بسرّ. جاء بابا وقال لماما: " أعلمتْني بنقطة قانونية؛ لا يجوز للمصحة أخذ فلوس عن أم ترافق ابنتها الصغيرة. "

في الصباح، تبيّن أن جِنان لا تشكو من الزائدة، بل من برد أثّر في مفصل الساق. وجاء دور الدفع: غاب

الطبيب الذي شخّص الزائدة وطالب بفلوسه غيابيّاً. طلبت الأشعة فلوسها. طلبت التحاليل فلوسها. وطلب الطبيب الذي نسي هاتفه الجوّال فلوسه. وطلب النوم فلوسه. وصاح بابا: "ما هذا؟ نزلة برد شغّلتْ كل هؤلاء؟" ردّ رجل يلبس الأبيض وعلى صدره شعار مصحة الحرية: "احمدْ ربّك أن بنتك لا باس! " قال بابا: "خطأ الطبيب إصابةُ الأقدار؛ لولاي لأجريتم لها العملية الكاذبة!"

رفض بابا دفع الفاتورة إلا بعد مناقشتها، وخصوصاً ثمن مرافقة الأم. قال: "قانونيّاً، ابنتي قاصر. ولا بد أن ترافقها أمها." ولم يقل إن الممرضة أخبرتْه بذلك، لأنها ترجَّتْه ألا يفعل ذلك، حتى لا تفقد عملها.

كان بابا يتكلم "بالعرْبي"، وعندما اشتدّ غضبه صار يتكلم بالعربية، وكأنه يكتب كتاباً. لذلك استغربت مصحّة الحرية التي تتكلم بالفرنسية، وأرادت أن تعرف من أين هو. وأكثر من ذلك: إذا كان تونسيّاً، فمن أي مدينة هو؟ أصر بابا أنه لا ينتمي إلى أي مدينة لأن مدننا تتباهى على بعضها البعض. دفع بابا الفاتورة وظل فوق المدن كلها.

حكت ماما وبابا حكاية العملية الكاذبة لكل الأقارب

والأصدقاء والجيران. كانت جِنان تسمع الحكاية، وتسمعها، وتسمعها. قال طبيب الأطفال الذي لم نأخذها إليه مباشرة، بسبب الطبيب الأبيض والطبيب الأسود، "لمَ لم تأتوا بها إلى هنا؟ قليل من المضادات الحيوية وينتهي كل شيء." سألت جِنان بابا عن قيمة المبلغ الذي دفعه مقابل العملية الكاذبة. قالت: " سوف أبيع لوحاتي وأستعيد المبلغ كاملاً." رفض بابا الفكرة، كانت جِنان تبيع لوحاتها بمائة مليم، قبل أن تتوقف عن الرسم "المحترف" لاحقاً. وكان هناك من يقدر اللوحة بسعر أفضل؛ فيدفع لها حتى خمسة دنانير. جمعت جِنان خمسة وعشرين ديناراً. قالت: "خذ يا بابا فلوس العملية. قال بابا: "لا". قالت جِنان:

- إذن، خذ هذه الفلوس، وكمل عليها المبلغ الناقص، واشتر لنا فيللا بدل هذه الشقة التي نسكن فيها.

انتفاضة خلف الباب

سافرت ماما. وفي اليوم الثالث اشتاقت لها جِنان كثيراً. وهي عندما تشتاق كثيراً ترسم وتكتب كثيراً.

رسمت جِنان لوحة ملوَّنة فيها حرب. وكتبت في ورقة أخرى:

"هذه هي القدس (صورة المسجد الأقصى) وهذا علم فلسطين (فوق قبّة الصخرة) والدبّابة الخضراء تقتل أهل فلسطين. وهذا محمد الدرّة يختبئ وراء(شطبت كلمة أمام) صخرة كبيرة. وهؤلاء أولاد القدس يضربون بالحجارة. وهنا نرى ولداً يبكي. والآن نرى جنود إسرائيل يحرقون علم القدس. وهذه القدس غاضبة."

عندما أرادت جِنان أن ترسم علم إسرائيل استنجدت بالقاموس الفرنسي الذي في مكتب بابا. وجدتْ فيه صورة لعلم إسرائيل مع بقية أعلام العالم، ولم تجد صورة لعلم فلسطين.

- لماذا؟ سألتْ بابا.

- لأن فرنسا تشبه أمريكا قليلاً، أجاب بابا.

- إذاً، فيها رمال متحرِّكة؟

- ربّما...

علّقت جِنان اللوحة والنص المصاحب لها خلف باب

الشقّة، وكتبت شعارات أخرى. كل ذلك حتى عودة ماما من السفر.

ملاحظة أخيرة: ظهر محمد الدرّة في اللوحة واقفاً، مع انحناءة خفيفة.

الفصل الخامس

جِنان والزمن

أنا الزمن

أنا الزمن. جِنان التي سوف تعيش قرابة قرنٍ، لم تتجاوز ستة في المائة منه. جِنان لا تعرف مَنْ أكون؛ فذهبت إلى جدها. وكانت السلحفاة التي تسميها جِنان "كَكُّون المفكِّر" تزحف تحت كرسي الجد. سألت جِنان جدها:

- ما هو الزمن؟

قال:

- هو الوقت.

عادت لتسأله:

- وما هو الوقت؟

- هذا الذي يمشي الآن.
- هذا فكرون وليس الزمن.

أجاب الجد محتاراً:

- اذهبي يا فيلسوفة، واسألي أمك أو أباك.

ذهبت جِنان إلى أمها ودوّختْها:

- ما هو الزمن؟ ما هي آلة الزمن؟ لماذا لا يتوقف الزمن؟

كانت أمها في المطبخ تسابقني، أنا الزمن، فلم تُجبها. ألحّتْ جِنان. تحركت في المطبخ كما لا يجب أن يتحرك الصغار. كادت أن تحترق. كادت ماما أن تحترق. أبعدتْها وهي تنهرها. أصرّت جِنان أن تعرف ما هو الزمن؛ أيْ منْ أنا. أجابت ماما غاضبةً:

- هذا الذي أحرقني وكاد أن يحرقك هو الزمن.

انسحبت جِنان متمتمةً " هذا ماء يغلي وليس هو الزمن. "

ذهبت جِنان إلى أبيها. كان يكتب قصيدة. وقد نصبتْ له القصيدة فخّاً فظن أنه خارج الزمن. لكن جِنان أنقذته من القصيدة وأعادته إلى مجراي، أنا الزمن.

- بوي! هل توجد آلة للزمن؟

تسرَّع بابا كي يتخلص من جِنان التي مزّقت زمن القصيدة، وأجابها:

- نعم، المنقالة، الساعة.

احتجّت جِنان موضِّحةً:

- لا. أنا أقصد آلة الزمن التي يركب فيها الإنسان.

- هل رأيتها في أفلام الكرتون؟

- نعم.

- تلك آلة يصنعها الإنسان بخياله كي يغلب الزمن.

- وما هو الزمن؟

- هو الوقت الذي يتقدم؛ يكون صباحاً ويصير ليلاً ثم يعود صباحاً. هو التقدم إلى الأمام دائماً.

- لماذا لا يتوقف أو يرجع إلى الوراء؟

- لأن الشجرة تكبر والطفلة تصير امرأة. ولا يمكن للشجرة أن تظل صغيرة، كما لا يمكنها أن تعود نبتة قصيرة أو بذرة؛ ولا يمكن للمرأة أن تعود إلى السابعة من عمرها.

ابتسمت جِنان وقالت:

- وأنا؟

- أنت أيضاً تكبرين مع الزمن.

- وبعد ذلك؟

- تتزوجين وتنجبين طفلةً صغيرةً، فتأتي وتسألك: ما هو الزمن؟

- وأين أسكن عندما أكبر؟

- في بيت زوجك.

بكت جِنان وقالت:

- كلا، لا أريد أن أكبر، أريد البقاء معكم.

خرجت جِنان وتركت أباها يحاول العودة إلى فخّه الذي ينصبه لنفسه، خارج الحياة، ويظنّه لي، أنا الزمن.

طبيبة عجائز

خافت جِنان؛ لأن مَنْ يذهب إلى المدرسة يكبر في السن. قالت:

- لا أريد الذهاب إلى المدرسة.

- لماذا؟

- كلهم يكبرون في المدرسة، وأنا سوف أبقى وحدي.

- سوف تكبرين معهم.

- إذن أصير طبيبة.
- طبيبة ماذا؟
- طبيبة عجائز.
- لماذا؟
- لكي أداوي جدي وجدتي، ثم أداويك أنت وماما عندما تصيران عجوزيْن.

هيكل عظمي

صورة لهيكل عظمي. جِنان تقلّب الصورة وتضحك: "ياله من عظم!" تواصل الضحك: "ياله من عظم!" تنحني وتضحك: "ياله من عظم!" تضغط على بطنها: "ياله من عظم!" تتدفّق دموعها من الضحك: "ياله من عظم!" تخبّط على ركبتيْها: "ياله من عظم!"

سألتها ماما:

- لماذا كلّ هذا الضحك؟
- لأنه يضحك لي!

فصول

في الخريف، حارت جِنان ماذا تلبس؟ متى تحمل

المظلّة ومتى لا تحملها؟ قالت: " الخريف سارق، يسرق ثيابه من كل الفصول!"

في الشتاء، قالت جِنان أنا ثلجة تذوب.

في الربيع، سمّت أزهاراً كثيرة، وعادت لتنسى أسماءها حتى الربيع القادم.

في الصيف، حفرت حفرة في الرّمل، جاءت بالسطل وملأت الحفرة ماء. غطت سطح الحفرة بغطاء السطل. وموّهت الغطاء بالرمل. قالت: " هذا فخ! من يمرّ من هنا يقع فيه." ذهبت إلى الماء. قفزتْ على موجة وارتطمت بموجة. عادت راكضةً إلى الشاطئ.

وقعتْ جِنان في الحفرة التي حفرتْها لأخيها، أحسّتْ بالهزيمة، واغتاظت من الفخ الذي انطبق عليها!

مفكرة

جاءت جِنان إلى ماما وقالت لها:

- غداً سوف أخبّش ريم.
- لماذا؟
- لأنها خبّشتني اليوم.

سكتت ماما، فطلبت منها جِنان أن تكتب لها ذلك على ورقة. سألتها ماما:

- ماذا أكتب؟
- اكتبي لي: جِنان ستخبّش ريم.
- لماذا؟
- لكي لا أنسى غداً.

فرشاة وأختها

ألقتْ جِنان بفرشاة أسنانها القديمة في سلة القمامة. وبعد يومين ألقى بابا بفرشاة أسنانه القديمة في سلة القمامة. رأتها جِنان فجاءت راكضةً إلى بابا:

- لو أننا ألقينا بالفرشاتين معاً، لتقابلَتَا وما بكتَا...

البنت والجنّة

قالت جِنان:

- عندما أكبر سوف أصير ولداً.

لكنها استدركت قائلةً:

- كلا، عندما أكبر سوف أصير أسداً.

هجمت على بابا، وعضَّتْه بقوّة. غضب بابا وقرّر معاقبتها. اعترضت جِنان وقالت:

- البارحة، في التلفزة، قال شيخ القرآن إن البنت قد تُدْخِلُ أباها الجنّة.

الساعة وأخوها

كان الجد جالساً على كرسي، يحدّق في ساعة المطبخ المعلّقة على الجدار. أطال التحديق وجِنان تراقبه. لم يكن يريد معرفة الوقت. هل تراه يراقب عقرب الثواني؟ ارتمت جِنان على ركبتيه.

- إلى الآن لم تنته من رؤية الوقت؟

لم يجبها الجد، فعادت لتسأله:

- من الذي اخترع أول ساعة؟

- لا أعرف.

قالت جِنان منتصرةً على جدها:

- الشمس صنعتْ ساعة شمسية، والماء صنع ساعة مائية، والرمل صنع ساعة رملية.

- آه! كيف عرفتِ يا حلوفة!

- أنت كبير ولا تعرف؟ أَرِني ساعتك!

- لماذا؟

- لأُرِيكَ الوقت وأخاه.

- ومن هو أخوه؟

- الليل!
ثم وضعتْ أُذنها على ساعة الجد وبدأت تُنْصِت:
- تك تك تك... هل سمعت؟ هذه خطوات الليل.

النّوم

قالت جِنان مخاطبةً بابا:
- نمتُ كلِّي وبقيَتْ أُذني. أنا مازلت أسمعكَ...
- لأن الأذن هي آخر من ينام...
- كيف؟
- و هي آخر من يستيقظ أيضاً...
- كيف عرفتَ؟
- عندما تكونين نائمة، تكون عيناكِ مغمضتيْن وكلّك نائمة؛ وإذا كلّمْتُكِ تكلّمينني.
- معنى ذلك أن فمي هو الذي يستيقظ الأول.
- بل هي أُذنكِ؛ تسمعني، فتقول لفمك أن يتكلّم.
ابتسمت جِنان، ثم أمسكت بأُذنها وجعلتْ تحركها بسرعة:
- يالها من أُذن! يالها من أُذن! كنتُ أظن أنها تظلّ ساكتة دائماً!

الفصل السادس

هلاكات الجد

الجد يدبّ صامتاً

تجاوز الجد الثمانين وما زال نشطاً. يستيقظ فجراً من أجلي، أنا الصلاة. ويستطيع في أوج الشتاء أن يتوضأ بي، أنا الماء البارد. يدب صامتاً من غرفة إلى أخرى، من الحمّام إلى المطبخ. نحن أدوات المطبخ، لا يكاد يصدر أي صوت عندما يتناولنا أو يستخدمنا. وحدي، أنا الخفّ الذي يرتديه، أُصْدِرُ حفيفاً زاحفاً في غبش الفجر. وإذا سبقني، أنا آذان الفجر، يجلس عليّ، أنا الكرسي، لينتظرني أنا الفجر، وأنا، المسبحة، في يده.

يأتي إليَّ، أنا السوق البعيدة عن الدار، ويحملني، أنا قفة الخضار والفواكه.

يستطيع الجد أيضا إصلاحي، أنا قفل الباب. أو تغيير جلدتي، أنا الحنفية، يستطيع إصلاح ساقي، أنا الكرسي. وبعد ذلك يتمدد عليّ، أنا الأريكة. ويمسك بي، أنا جهاز التحكم عن بعد، بيمينه، وأنا المسبحة بيساره. ويتابع أخباري، أنا العالم وأحداثه.

كلما مات واحد من جيله نزلت على خديه دمعتان.

رائحة الصيف

في المساء يعتني بي الجد، أنا الحديقة الصغيرة. يسقي الحوض الممتد مع الجدار. يسقي النعناع والحبق والعطرشاء وشجيرة الورد الجوري وشجيرة الياسمين.

يعتني بي أكثر، أنا شجيرة الياسمين: يشذبني، يربط أغصاني الممتدة، يقطف أزراري الجديدة، يصنع مشموماً له، ولضيفه. وينثر ما تبقى على وسائد مَنْ يحضر من أبنائه وزوجاتهم. بعد ذلك ينظف باحة الدار حتى لا تتعب الجدة.

مع رائحة الياسمين يعود الجد كل صيف.

مخابئ الجد

صار الجد يسكت كثيراً. لا يكاد يكلم أبناءه إلا في

حدود السلام أو السؤال عن الصحة. لكنه يكلم أحفاده، بل إن أحفاده هم الذين لا يتركونه يسكت.

كثيراً ما يختفي الجد وتجده جِنان ورائي، أنا الثلاجة.

يضعني أنا الكرسي، بيننا، نحن الثلاجة وخزانة المطبخ. ويختفي بجانبي، أنا كيس الخبز.

إذا كنتُ غير مضاء، أنا المطبخ، لا يمكنك أن ترى الجد في نصف عتمتي.

ماذا يدور في رأس الجد؟

إزداد غيابه عن بيته. تتفقده الجدة فلا تجده. قالت: أحيانا يختار الجلوس على حافة الرصيف الغربي، أمام دار الجيران، ويبقى صامتاً هناك.

يحوم الجد حول داره. يجلس على كل الأرصفة التي تحيط بها. يترك الدار أمامه ويحوم حولها. لا أحد يدري ماذا يدور في رأس الجد. تسأله الجدة لماذا يفعل ذلك فلا يجيب.

تنقّل الجد بين مهن كثيرة

تنقل الجد بين مهن كثيرة. عمل فلاحاً، وبناءاً، ونجاراً، وجندياً، وثائراً، وسجيناً، ومشجِّر جبال، غداة الاستقلال، وشريكاً في تجارة خاسرة، وعاملاً.

جاءته الحكومة متأخرة. فخافت منها الجدة. قالت الحكومة: اكتشفنا أنك كنت مناضلاً قديماً؛ ولك الحق في جراية أو رخصة أو... قال الجد: لا بأس عليّ! كبَّرْتُ أولادي بعرق جبيني... بلغوا أعلى مراتب العلم. تزوجوا. أنجبوا. لم يبق أمامي إلا...

هكذا أنهى الجد لقاءه الحاسم مع الحكومة. بينما ظلت الجدة تروي الحكاية ضاربةً كفّاً بكف.

كوابيس الجدّ

صارت الكوابيس تهاجم الجد بقوة. في إحدى المرات أسقط ستارة الباب بجانبه. وفي مرة أخرى، هجم على الجدار يضربه بعنفٍ حتى أدمى يده وهو يصيح. قالت جِنان لا شك أن جدِّي يضرب الشيطان. أما أبوها فقال لها: عليك أن تبتعدي عنه، وقت النوم، وإلا حسبك ستارة، أو شيطاناً، أو جندياً ألمانياً، أو مستوطناً فرنسياً.

قالت الجدة: أغلب كوابيسه لا تتعلق بالحرب بل بأرضه التي باعها.

الهجوم على الألمان

في المرّات النادرة التي تحدث فيها الجد عن ماضيه، حكى عن الألمان الذين زحفوا على تونس، أيام فرنسا. تحدّث بإسهاب عن عائلة من أقربائه أبيدتْ عن بكرة أبيها في مزرعتها التي كان يؤمها الألمان.

وقبل هزيمة الألمان، اشتد قصف الحلفاء على مدينة باجة. جهّز الجد عربةً يجرّها حصانان. أركب أمه وأباه وإخوته، وانهال بالسوط على الحصانين، المجْفليْن من دويّ القنابل وأزيز المدافع، حتى بلغوا المزرعة: أرض الجدّ الأول، مؤرخ البايات الحسينيين، قبل أن يتفاقم تخاصم الأخوة حولها، وحول بيعها منفردين. فاضطر الجد بدوره إلى بيع ما تبقى، ليشتري منهم الدار.

قال الجد: " كانت القنابل تسقط على جانبيْ العربة، فيزداد هياج الحصانيْن، لكن السوط يُعيدهما إلى اتجاه المزرعة. " قالت الجدة: " ذلك العام نسمّيه عام الهجَّة. "

جزيرة اسمها كورسيكا

سألتْ جِنان جدَّها:

- أين ذهبْتَ وقت الحرب؟

- ذهبْتُ إلى جزيرة، اسمها كورسيكا، مع عسكر فرنسا.

- لماذا ذهبْت مع عسكر فرنسا؟

- لنحارب الألمان الذين احتلوا فرنسا.

- وما دخلك أنت؟

- هم الذين دخلوا تونس، ثم أدخلوني...

- وبعد ذلك؟

- كانت هناك بُنَيَّة صغيرة، في عمرك، تأتي كل يوم وتطلب مني حصتي من الشكلاطة.

- وهل كانوا يعطونك الشكلاطة؟

- نعم، كانوا يوزّعون الشكلاطة السوداء على الجنود.

- أنا لا أحب الشكلاطة السوداء، أعطني ديناراً لأشتري شكلاطة بالحليب والبندق.

حرب أخرى

أُعْجِبَتْ جِنان بحكايات جدّها عن الحرب المخيفة. فحدّثها عن حرب أخرى، جرتْ في تونس. فصارت جِنان تتباهى بجدّها الذي غلب فرنسا، رغم أنها سجنتْه في الحبس، فخرج منه، وأخرجها من تونس. ثم تمشي مشية عسكرية، وتردد نشيد " حماة الحمى. . . " وتحمل علَماً مرتَجَلاً مما تقع عليه يدها: عصا، أو مكنسة، أو حتى ملعقة.

بيروت أيضاً

فرحتْ جِنان لأن أخاها لم يولد بعد، مثلها، آنذاك. قال الجد:

- جاءت أمك من بيروت، أيام الحصار، تحمل معها حبّتيْ خيار. حسبنا أنها جُنَّتْ!

- اللطف على ماما!

- لكنها أرادت أن توضح لنا الفرق بين الفقوس الذي نعرفه والخيار الذي لا يوجد هنا.

- وبعد ذلك؟

- طلبتْ مني أن أُقنع أباكِ بالعودة إلى تونس.

- وماذا فعلْتَ؟

- أمسكْتُ بسمّاعة الهاتف، وقلت له: الله معكم! افعل ما تراه صالحاً، وما يجري للشباب يجري لك.

- وماذا قالت ماما؟

تدخّلت ماما في الحوار، وأجابت:

- ماذا قلتُ؟ قلت: جِبْنَاكْ يا عبد المعين تعين لقيناك يا عبد المعين تِنْعان.

لم تفهم جِنان. وأضافت ماما مبتسمة:

- اسألي عبد المعين كيف كنت اصطحبه فيما بعد لمساعدتي، وهو ابن البلد، وكيف كان يتبجح بابنه، في أماكن حسّاسة، وأنا ألهث من أجل جواز سفر حفيده!

بابا نويل

طلبت جِنان من بابا نويل هدايا كثيرة وكبيرة. قالت ماما: " نوافذنا مطوَّقة بالحديد المطروق. وليس لنا مدفأة يتسلّل منها بابا نويل. " كتبت جِنان رسالة طويلة بخط يدها، تسلّمُ فيها على بابا نويل، وتطلب منه ألعاباً أخرى ذات أحجام صغيرة، يستطيع إدخالها عبر قضبان النافذة.

في الصباح، ردّ بابا نويل ببطاقة معايدة.

أُعْجِبَتْ جِنان بالهدايا وببطاقة المعايدة التي كتب عليها بابا نويل: " أحبُّكِ يا جِنان. " قالتْ جِنان: "ما أجمل خطَّه! لم ينزل عن السّطر رغم أن الورقة غير مُسَطَّرَة! "

شجرة الميلاد

قالت ماما لجِنان، ربّما لكي تتخلص منها: "اذهبي إلى جدك، واسأليه كيف أتى لي بأوّل شجرة... "

قال الجد:

- تلك كانت حيلة!

- كيف؟ سألته جِنان متشوّقةً، لأنها تحب الحيَل.

- عندما جاءت أمك، أرادتْ أن تتابع عادتها في تزيين شجرة ميلاد. لكننا هنا لا نحتفل بشجرة الميلاد.

- لماذا؟

- سوف تكبرين وتعرفين.

- كيف أتيت بالشجرة؟

- طلبتْ أمك رأي جدّتك، فاقترحتْ جدّتكِ أن تبعث بي إلى مدينة أخرى، لأقضي أسبوعاً عند أخيها.

- لماذا؟

- كانت تظنّ أنني أرفض رؤية شجرة الميلاد في داري.
- فماذا فعلْت؟
- أمّكِ هي التي جاءت وأخبرتني بأن الجدة تريد نفيي بسبب الشجرة.
- وبعد ذلك؟
- ذهبت إلى الجبل وأتيت لها بشجرة سَرْو صغيرة.
- وزيَّنتْها ماما؟
- نعم.
- وجاء بابا نويل؟
- لست أدري.
- وأنا أين كنتُ؟
- لم تولدي بعد.
- لماذا وُلِدَ أخي ولم أولَدْ أنا؟
- اسألي أمك.

ما لم يحْكِه الجدّ لحفيدته هو عودته مخضّباً من عملية اقتلاع شُجيرة السّرْو التي دافعتْ عن نفسها تاركة جرحاً نازفاً على جبينه.

رسائل الجد

جاءت جِنان إلى بابا باسمةً وقالت: " انظرْ ماذا أعطاني لك جدي!" كانت مجموعة رسائل قديمة. بعضها بخطّه و بعضها الآخر بخطّي، أنا الأب، عندما كنت أبلغ من العمر تسعة أعوام أو عشرة.

فرحتْ جِنان برسالة رسم عليها الجد قلْباً بالألوان، كتب في داخله اسم محمود، وأحاطه بأسماء الجدة والأبناء. وكتب تحته: أحسني تربية الأبناء. ورسم مزهريّة فيها ثلاث زهرات؛ واحدة بستّ بتلات، و اثنتان بخمسٍ فقط. كتب الجد تحتها: من محمود إلى خديجة.

- لماذا تحمل هذه الزهرة خمس ورقات فقط؟
- لست أدري.
- لأن عمتي رفيقة ماتت وبقيتم خمسة فقط!
- لم تمت في ذلك الوقت...

أصرت جِنان أن الرسائل لها، ورفضت تسليمها إلى بابا. وجدتْ قلب الجد في رسالة أخرى. كان باللون الأحمر، ولا يشبه القلب الذي تعلِّقه في عنقها، أو ذاك

الذي يرسمه العشّاق. فتساءلتْ: " لماذا رسم جدي القلب هكذا؟ " كان قلبه هذه المرّة قلباً حقيقيّاً. ربما لأن الجد يجيد ذبح الخرفان.

كتب الجد في وسط قلبه الحقيقيّ "خديجة." وأحاطه بست زهرات واضحة الأسماء: إحداها، أختنا بالتبنّي، وسوف تموت بدورها، فيما بعد. واستغربت جِنان لأنها لم تجد اسم عمها الأصغر:

- أين عمي شهاب؟
- لم يولد بعد.
- إنه مثلي لا يولد مبكِّراً فتسبقه الحكايات!

كتب الجد تحت القلب: "ليلة الأحد، على الساعة الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة." كانت رسائله مكتوبة بخليط من العامية والفصحى. وكذلك رسائلي، أنا الأب، التي كانت تمليها عليَّ أمي، فأكتبها كما ترِد على لسانها. في بعض الرسائل تمازحه وتسأله عن امرأته الأخرى، في جبال السِّرْس، حيث كان يشتغل. وللجد تعبير يكرِّره كلما طرأ أمر غير متوقَّع: " القَدَر كذّبَ عبد القادر. "

ومن الرسائل اكتشفت جِنان بعض أسرار أعمامها.

عرفت من هو الشيطان، ومن الذي يقرأ دروسه، والذي يتكاسل وينام كثيراً، وفي الصباح يستيقظ بصعوبة ليذهب إلى المدرسة.

كتب الجد في إحدى رسائله، بتاريخ 13/ 8/ 1961 يقول: أنا مستوحشكم برشا. لكن لا أستطيع المجيء لأن الدنيا مشوّشة وأنا دائماً تحت الطلب. أستنّى من هنا إلى راس الشهر ماذا يجري في قضية حرب بنزرت. "

كانوا سيحتاجونه إلى حرب أخرى.

لكنها لم تدُم.

فعاد إلى تشجير جبال الوطن.

الفصل السابع

النفير

موعظة النفير

إنتهى الجدّ من تفسير موعظة النّفير لحفيده أحمد:

- يوم يُنْفخ في النّفير أستطيع الهروب! قال أحمد.
- وكيف ستهرب؟ سأله الجد.
- أختبئ في الخزانة.

أزواج الحمَام

ازداد حبّ الجد للجدّة في أعوامه الأخيرة، كما يفعل العجائز: يُكبِّرون الصغار، ويبقون وحدهم، فيرتدّون بالحب على بعضهم بعضاً، كأزواج الحمام. شوهد الجد ينشج لأن يد الجدة أصيبت بحروق. وشوهد يبكي مثل الأطفال لأن الجدة جُرحت.

في مناسبات أخرى، كان يحمل ملفّات الأطبّاء وصُوَر الأشعة، بينما الجدة تجر ساقها العليلة، وتمسك بيده، لصعود سلالم الأطبّاء.

يتحاوران حول الموت، فيريد كل واحد استباق الآخر إليه.

صار الجد لا يحب التجوال والزيارات ومغادرة الدار، إلا إلى الجامع أو الطبيب. تجارب كثيرة تُبَيِّن أن موت الجدة قبل الجدّ، يُسرِّع في موت الجد. أما الجدات فهنّ عادةً، أصغر عمراً، وأقدر على تحمُّل وطأة الترمّل، وملء فراغ البيت، بهذه الطريقة أو تلك...

البَرْزَخ وما بعده...

بدأ الحوار في الجامع عن أحوال الميت وأهوال القبر. وأراد الجدّ المزيد. فجلب معه كتاب " أحوال الميت: من نفخة الصُّور إلى الاستقرار في الجنة أو النار" وهو جزء من " إحياء علوم الدين " للإمام الغزالي. استعاره الجد من إمام الجامع.

طلب من بابا أن يقرأ له من الكتاب. تصفّح بابا الكتاب، وعلّق متذمِّراً:

- ما هذه الأهوال؟ تخيُّلُها أفضل من قراءتها!
رد الجدّ:
- وما دخلك أنت؟ اقْرأ لي.

تمهّل بابا وهو يمرّ بالبرزخ خلف الجد. أسرع به مخلِّفاً صفحات على "جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدقّ من الشَّعر" هو الصراط، حيث "الخلائق بين يديك يزلّون ويتعثّرون، وتتنازلهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب."

كاد بابا أن يضل في الصراط، لكن الجد أمره بحركة من يده أن يكمل، فبلغ الشفاعة، ووصف الحوض. ثم غرق في جهنّم وأهوالها وأشكالها " تغلي بهم كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صبَّ من فوق رؤوسهم الحميم يصهر ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد تُهشَّم بها جباههم فيتفجّر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الخدود أحداقهم... وكلما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها... وهم مع ذلك يتمنّون الموت فلا يموتون!"

قفز بابا من الجحيم راكضاً نحو الجنّة. كان الجدّ لا يراقبه. ولا يرى ما يفعل، بل يطرق محدِّقاً، بعينيه الكليلتين، في الأرض: " أما أهل الجنة فكانوا جالسين

على منابر الياقوت الأحمر في خيامٍ من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بُسُط من العبقري الأخضر، متّكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان".

توقّف بابا عن القراءة معلّقاً:

- في الجنّة توجد خمرة!

- ليست خمرتك، أَكمِلْ!

" مزيَّنة بالحور العين من الخيّرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألْفاً من الولدان...

شكِلات

غنجات

عطرات

آمنات

كرر بابا منغِّماً قول ذلك ثم قرأ: " وإذا المرأة تأخذ بين إصبعيْها سبعين حلّة فتلبسها فيُرى مخّ ساقها من وراء تلك السبعين حلّة، وإنّك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويّاً... "

ترك باب صفحات أخرى ثم قرأ: " إن في الجنّة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا اشتهى الرجل صورةً دخل فيها. . . "

تساءل بابا: " والمرأة؟ " لكن الجد سمع آذان العصر فقام ليصلّي. وعلّقت جِنان على ما فهمتْه قائلةً: "برافو بابا! لقد أوصلْتَ جدّي إلى الجنّة. أنا أيضاً سأذهب إلى الجنّة. لكن الكتاب لم يقل هل فيها ألعاب أم لا. لماذا لم يتحدّث الكتاب عن الألعاب؟ "

أنا الساعة العملاقة

أنا الساعة العملاقة، البعيدة، القريبة، اللامرئية. . . التي تدقّ.

كان قلب الجد قد أرسل إنذاراً أوّل. وعندما أغميَ عليه في الحمَّام، كان القلب قد أرسل إنذاراً ثانياً.

أنا ساعة القرصان الكونية التي تدق. تنادي الذين فقدوا قوة العضلات، وصلابة العظام، فخفّتْ عيونهم عن النظر، وآذانهم عن السّمع. تنادي الذين كبروا كثيراً كي يستعدوا ويفرغوا الدنيا لغيرهم.

في نهايات موسم السفرجل، اشتهى الجد مرَقَهُ.

أعدّت له الجدة طبخته التي يشتهيها مرَّةً في العام. أكل الجدّ بشهيّة. ذهب إلى الياسمينة. وضع كرسيّاً كعادته. قطف النوّارات الجديدة. لاحظت الجدة أنه، ولأوّل مرّة، لم يتوضأ، واكتفى بالتيَمُّم. ذهب إلى فراشه وتمدّد. سمعت الجدة صياحاً. أسرعتْ إليه. وجدتْه يضرب على صدره.

فات الأوان... قال الطبيب.

فيما بعد، قالت إحدى القريبات، وقد أسرعتْ استجابةً لنداء الجدّة: " كاد ينسى الشهادة. كان ينازع وأنا أُمسك بسبّابته وأقول له: شَهِّدْ يا سي محمود شَهِّدْ! شَهِّد وإلا كل الذي صلّيْته في حياتك يمشي خسارة! "

أنا قبر الأسلاف

مطر غزير. ها إنني قد فُتحْتُ من جديد، أنا قبر الأسلاف القديم. كوَّموا العظام القديمة في زاوية، لتكون عند قدميْ الميت الجديد.

عندما أنزلوا جثمان الجد المتيبّس لم يتمكّنوا من إدخاله مستقيماً.

جيراني، بل أهل جيراني، جيران القبر، سوّروا

قبورهم المحاذية لقبوركم، وبنوا سوراً قصيراً، فوق سيقان أمواتكم.

مطر غزير.

لا تظهر عرقلة أمواتهم لأمواتكم على مستوى السطح، بل بعد حفر أديم الأرض. قبورهم أجمل من قبوركم. صاح أحدهم: " أَدْخِلوا الساقيْن أوّلاً! " وهكذا نجحوا في إدخال الميت. فيما بعد سوف يأتي مجاهد قديم ممن ارتقوا مناصب الأرض والدولة، وكان رفيقاً له في الحبس أيام النضال، ليقول وهو يرفع سبَّابته من أنفه إلى جبينه: "الله يرحمه! كان أنفه هنا! ". لقد ظلّتْ تلك عقدتهما المتبادلة. هو؛ لأن الجد لم يقصدْه قط ولم يطلب منه شيئاً. والجد الذي ظل يقول: " لن يأتي ذلك اليوم الذي أطلب فيه شيئاً من تلك الزنزانة المشتركة. "

مطر لا يتوقّف.

علّق آخر من تبقّى من أشقَّاء الميت، مبلَّلاً مثلنا بالمطر:

- مسكين خويَ! دخل قَبْرَهُ بالطريقة نفسها التي عاش بها حياته!

وقود الملكوت

أنا قبر الجد؛ قرأتْ جِنان على روح جدّها ثلاث سور مربوطة، ثم سألتْ أباها:

- ماذا يوجد تحت الحجرة؟

قاوم الأب أبشع صورة قفزتْ أمامه، وأجابها، بعد كشط الصورة من ديدانها:

- عظام...

ذُهِلَتْ. كانت لها صوَرُها هي الأخرى:

- كيف؟ ألا يذهب جدّي كلُّه إلى الجنّة؟ كيف تبقى عظامه هنا، ويذهب إلى الجنّة؟

ما بعد أهوال القبر: فكرة جديدة

جلستْ جِنان على كرسيّ وبدأتْ ترسل بمن تحبّ إلى الجنة، وترسل بأعدائها الصغار إلى النار.

- وبابا؟

- بابا لا يصلي مثل جدي... ويشرب الخمر...

- إذاً، سيذهب إلى...

صارتْ تصيح وتبكي. وعندما هدأتْ قليلاً، قالتْ:

- لا. بابا يذهب إلى جنة الألعاب. هل نسيتَ شيخ

القرآن الذي قال في التلفزة إن البنت تستطيع إدخال أبيها إلى الجنّة؟ سوف أُدخِلُكَ إليها، كما أَدْخَلْتَ أنتَ أباك!

سكتتْ جِنان قليلاً ثم سألتْ بابا:

- ماذا سيفعل الله بعد أن ينتهي من توزيع الناس على الجنة والنار؟

الفصل الثامن

ما يدوم وما يعود

أنا الدار

أنا دار من حجر. بُنيتُ على ربوة من حجر. تأتي السماء إلى فِنائي، وتغامر بعض الطيور.

غاب عنّي بابي الخشبي الكبير؛ ذلك الباب الذي صمد أمام عصابة اليد الحمراء أيام الاحتلال، عندما جاءت، ذات ليلة من ليالي الشتاء، تتعقّب الجد، فحصّنه بالخزائن والأرائك والكراسي، طالباً النجدةَ بلغتين!

غابت عني شجرة الليمون التي كانت تتوسط الباحة المبلَّطة.

وغاب عني من كبروا.

أنا دار عالية، لكنهم يعودون إليَّ عمالقةً في دار واطئة.

شُجَيْرَة الورد

أنا الهشاشة في نوم القطيفة. أنا الصخب في همسات الأريج. لكن آخر وردة استَأْمَنْتَ عليها أمَّك، قطفتْها الحفيدة.

قولوا عنّي: كانتْ وردةً وحيدة. وَمَضَتْ و... مَضَتْ.

الياسمينة

لا أحد كان يعتني بي غير الجد. لا أحد مشّط شعري، كما أحبُّ، بعد موته. فأين توازن أغصاني؟

هنا تراقصت فوانيس ملوَّنة كثيرة في أعراسكم. ومن هنا تسلل الجد بنجمات كثيرة مستبقاً هجعة زوجاتكم.

قتلتْني الجدة بصفيحة النفط سهواً...

وهاأنذا سَهْواً أموت.

" المَارُو "

أنا ثالث الخزائن الحائطية في صحن الدار(للجدة اثنتان: واحدة للمؤونة، والثانية لخزن أواني الطبخ الكبيرة) هنا كان الجد يخزن آلات الحفر والنشر والبناء والحدادة والكهرباء... فتجتمع مع الحبال والصّمْغ وعلب الدهان والعجلات الجانبية، التي كانت ذات يوم تسند درّاجات الأحفاد، وخراطيش الصيد القديمة التي دامت وعَمَّرَتْ أكثر من البندقية.

وهنا خبَّأ الجد رسائله.

أنا السبحة، مازلت هنا أيضاً: بين صلاة وأخرى، كان الجد يمسك بي بين أصابعه، تسأله جِنان: ماذا تقول؟ فلا يجيب. تمسك جِنان بالمسبحة، فيسألها: ماذا تقولين؟ فلا تجيب.

أنا الميدالية البرونزية: لم يفرح بي الجد كثيراً. ربما لأنني توّجت كل نضالاته السابقة بتقاعد برونزيّ من معمل السُكَّر. حتى أنتم ضحكتم مني كثيراً. ومع أن الجد رفض أو تحاشى مكافآت الجهاد الأخرى، فقد عاد بي إلى الدار. عاد متقاعداً وأنا في جيبه، أشهد على جهاده الأكبر: سُكَّر الوطن!

أنا الخنجر: أنا سلاح أبيض. أعتقد أنني مُحَرَّمٌ

قانونيّاً. لكنني ألمع في زمن آخر. صنعني الجد، عندما اقترب من نقطة الصَّهر في معمل السكّر. وما يُحَيِّرُني هو هذا الغمْد الذي يبدو أن الجد قد صَبَّني على مقاسه.

أنا غمد جلدي قديم، مرصّع بمسامير فضّية عريضة. ورغم وجود هذه الحلقة قرب الفتحة، لم أُعَلّقْ بأي حزام منذ أن سكنني هذا الخنجر الأخير، الذي يزعم أنه مازال يلمع، لكن في زمن آخر.

أشياء أخرى

أشياء الميت تدوم أكثر منه. وكلُّ ما يتبقّى من الميت يشكِّل اعتداء على الأحياء: القميص المكوي، حذاء المناسبات، حافظة النقود الفارغة، الخاتم، السّبحة، حمَّالة المفاتيح، ساعة اليد...

كلّ ما يسكن اللون والشكل والحركة، لابدّ من إخفائه أو توزيعه. فقد يتحرّك فيها الغياب فتحيى على هيأة حضورات متتالية في اللحظة: هذه الأشياء تدوم.

الفصل التاسع

سبع علامات على عودة الجد

حكايات البرزخ

أهو الميت الذي ينتقل في أيامه الأولى إلى "البرزخ"، أم أن أحبابه الأحياء هم الذين يقتربون من ذلك المَعْبَر؟

لِنَقُلْ إن الروح، عندما تكون لا تزال مقيمة في البرزخ (لمدّة أربعين يوماً؟) يكون الأحياء لا يزالون مشدودين إليها، متوتّرين، متيَقّظين لأي حركة أو صوت أو حفيف، منتبهين لإلحاح فراشة أو نقرات عصفور على بلّور الشبّاك.

خرج الجدّ متقاعداً من معمل السُّكّر بميدالية فضّية، وجراية نصفها من السكر، مدى الحياة... وكان يرتّب

السكّر في خزانة المؤونة، بعد أن يكوِّمَه في قصعة من الألومنيوم.

في أيام "البرزخ"، ذهبت الجدة إلى خزانة المؤونة المحفورة في جدار صحن الدار. عادت تهتزّ وترتجف؛ قالت:

- أصابعُه! أصابعُه! رأيتُ أصابعَه! ترك أصابعه على السُّكّر!

وأصرّتْ على أنها آثارٌ جديدة، لأنها تناولت من السكّر أكثر من مرة قبل اليوم...

سألتْها جِنان:

- هل جاء في الليل؟

وصارت الجدة ترفض تناول السكّر. لقد حاصرها الجد في أشياء أخرى كثيرة، مثل إصراره على جرّ خطواته من غرفة إلى أخرى. في البداية باتت تخاف من الغُرَف الفارغة، خاصة في الليل. أرادت أن تهرب من البيت، وظلّتْ تكرِّر ذلك، حتى جاءها الجد كي يُطمْئنها، ويُقْنعها بالعكس:

"تمدَّدْتُ على الكنبة، أمام التلفزة، كما كنت أفعل، وسألتها:

- لِمَ كلّ هذا الخوف؟

- خُذْني معك!

- لا أستطيع... لديْكِ أولادك... يعيّشك لا تعودي إلى الخوف!

استيقظت الجدة من النوم، وصارت قويَّةً بذلك الحلم. لم تعد تخاف، حتى في الليل، أو طيلة فصل الشتاء عندما يكثر حفيف خطوات الجد في صحن الدار، بل صارت ترفض مغادرتَها رغم إلحاح أبنائها وأحفادها على زيارتها.

لا يأخذ شيئاً

روى أحد أبنائه للأحفاد أن الجد تراءى له عندما كان يسوق سيارته بسرعة. ونجا بأعجوبة لأنه ما إن خفف من السرعة حتى فوجئ بوجود منعطف خطير. وهكذا حال الجد دون حادث محتوم.

وروى آخر أن الجد جاءه في الحلم وأمْلى عليه وصاياه. فكان أبرزها الاعتناء بالجدّة، ومرض "فلان" الذي مرض فعلاً.

بعد ذلك صار موت الجد قديماً. ولم يعد يظهر إلا في الأحلام، عائداً من السوق بقفّته، أو راكباً سيارة أحد

أبنائه، أو متّكئاً على الكنبة، مكانه المفضَّل، في حوارٍ هادئ مع الجدّة.

أكدت الجدة أنه يرفض أخذَ أي شيء- وهذه علامة جيدة في التأويل- لكنه قد يُعطي أحياناً. وهكذا أعطى ياقوتةً إلى أحد أبنائه.

ومع ذلك مازالت الجدة تؤكد أن كل حركة خفيَّة وكل حفيف في الدار، هما من وقع خطواته.

أركض وهو على كتفيَّ

طلب مني أن أحمله على كتفيَّ، ففعلْتُ. أمرني أن أمشي فمشيتُ: من أرضنا المباعة إلى أرضنا المشتراة، ومن دارنا إلى كورسيكا، ومن سجن الاستعمار إلى جبال السّرْس، ومن معمل السُّكّر إلى دارنا، مرّةً أخرى.

- والآن، أَعِدْني إلى المقبرة، قال.

أعدْتُه، وخرجتُ من الحلم مهدود الكتفيْن.

في المقبرة

إذا كانت حياة أخرى، فمعنى ذلك أنه لن يخسر أكثر مما خسر.

إذا لم تكن حياة أخرى، يكون قد راهن على الخسارة مرّتيْن.

لا تُحيلُ القبور إلا إلى زمن منتهٍ.

رصاصة

أُصيبَتْ الجدة برصاصة في الدماغ...

كلا، لقد نمتُ وتركتُ الراديو مفتوحاً: امرأة في جنوب لبنان، أصابها قنّاص إسرائيلي.

الجدّة تكتسب عادات الجدّ

أخيراً زارتْنا الجدّة التي اكتسبتْ طِباع الجدّ، فصارت لا تريد مغادرة دارها.

قالت جِنان:

- أريد أن أكون مثل جدّي...

- لماذا، سألتْها الجدّة.

- لأنه لم يكن يذهب إلى المدرسة، ولم يكن يشتغل. ومع ذلك يحبّه الجميع، وحتى بابا يقول له: بابا!

ضحكت الجدة، فسألتْها جِنان:

- لماذا مات جدّي؟

- لأنه كبُرَ وصار شيخاً عجوزاً.
- إذن، لا تكبري، أنتِ أيضاً!

حلَّ الربيع، فأصرَّت الجدّة على العودة إلى دارها. لماذا؟

السنونو

منْ رذاذ الزقزقات الأولى في صحن الدار، إلى انحناء الصيف فاسحاً للخريف، تلاحق الجدة أزواجَ السنونو بمكنسة الغبار والعناكب، بينما الأزواج الغِرَّة تغامر حتى داخل الحُجرات. تلك سُلالة جيلٍ تكاثر وفيّاً، منذ طفولاتنا.

غير أن الجدّة كبُرت الآن، وتعبت.

كانت تسمح، كلَّ عام، بعشّ واحد لزوجيْن، في مدخل السقيفة. هكذا اعتادتْ. لكنها صارتْ، بعد موت الجدّ، إذا غابتْ، تعود إلى جمهرةٍ صاخبة على حِبال الغسيل، أو على شُجيْرة الياسمين وفي زوايا الباحة المنقوشة.

وزاد السَّلْحُ بلَّة بسبب الاجتماع الليليّ للذكور القادمين من كل مبنى وحارة.

يصطفُّ الذكور(ومَنْ أدراها أنهم ذكورٌ فقط؟) على سِلْك الهوائيِّ المتأرجح من سطح الطابق العلويّ إلى قاعة الجلوس، تاركين في الصباح، قشورَ السّهرة على البلاط: سَلْحها على الجدران، وفي الفِناء. تتجمّد سيولَتُه على خشونة الستائر المُقَلَّمة.

ثمّة بلورٌ مثلوم الزاوية، في أعلى الباب: تسلَّلَ زوجان إلى غرفة النوم. هوذا عشّ وَقِح بين فوانيس الثريَّا!

ليستْ تلك هي الأسباب الوحيدة للجدة كي تقطع زياراتها إلى أحفادها منذ بداية الربيع:

– أخاف، في حياتي، أن يَرِثَني الخُطَاف!

الفصل العاشر

حكايات الأحفاد

نحن الأحفاد لم تعد تربط بيننا ملكيّة الأرض، وها قد مات الجد. اغتنى أَلْبوم العائلة: جاء الأشقر والأسمر؛ وجاء النحيف والضخم. جاءت قطة الرّماد ذات العينين الخضراوين. وجاءت سيدة المستقبل بملامح من عشرينات القرن الماضي. جاء العازف والطائش والمُغرم بعواصم الثلج والضباب.

وجاء من يحمل اسم الجد.

وجاء من يريد التأْريخ للعائلة.

كان أجدادنا يفقدون أسلافهم، فيكررون حضور أسمائهم في أبنائهم. والآن، ما من حصاد يربط بيننا. أغلقنا أَلْبُوم العائلة وجدَّدْنا الأسماء.

نتفرَّق في رأس الجدّة ونتجمَّع مثل رؤوس الكرنب

في صحن الدار. نتحالف، ضد الجدّة، مع غزوات السنونو: هي بأجنحتها، من فوق؛ ونحن، بأجنحتنا الأرضية، من تحت. فيما الجدة ما بين أرضٍ وسماء.

من شباك الطابق العلوي

"صعدْتُ على الكرسي وبدأتُ أقطف أزرار الياسمين. كانت يداي تقتربان ولا تطولان أشياء واقعكم. حفيدي شادي أصرَّ على أنه رآني من شُبَّاك الطابق العلوي. أسرَعَتِ الجدَّةُ لتطلَّ. لكنّها لم ترني."

نهار جديد

لم ينم أحدٌ إلا الصغار. استيقظ أحمد على ذيول سهرتنا قبل بزوغ الفجر بدقائق. نظر إلى السماء من النافذة، ليعود صارخاً:

- رأيتُ جدّي الذي صعد إلى السماء، رأيْتُه يدْهن النهار!

سؤال

دقَّ وائل على قبر الجدّ:

- جدّي، هل أنتَ لا بَأْس؟

حوض ماء ساخن

وقال أنسي:

- لما كان جدي حيّاً كان يحلم ولا يرى جسده. وعندما مات صار يحلم دائماً ولا يستطيع العودة إلى جسده. لكنه موجود.

- كيف؟

- مثلما تدخل حوضَ ماءٍ ساخن يتصاعد منه البخار. تُحدِّق بعينيك، فتضيع أفكارك، بينما جسمك يعوم...

فراشة زرقاء

أما حفيدته الكبرى كوثر، فظلتْ تريد أن تحلم به ولا تستطيع. طارت فراشة زرقاء وحطَّتْ على شعر ابنتها الشقراء. قالت:

- جاء جدّي إلى الدنيا ليحلم حلماً طويلاً؛ الأحياء يأتون إلى الدنيا ليحلموا حُلماً طويلاً.

عودة إلى جِنان: مفتاح للقبر

في زيارة إلى المقبرة، جلست جِنان على قبر الجد، وقالتْ: " هذه طاولة! " وأصرّتْ أن الجد، وكل الموتى الذين حوله، ينامون. بعد ذلك قالت إنهم مَرْضى. أما الكؤوس الصغيرة التي تُحفر على القبور، وتأتي الطيور لتشرب منها، فقد أصرَّتْ أن فيها دواء.

فجأة تقمّصتْ دور طبيب: " إبرة.. زُرِّيقَة... نَنِّي نَنِّي.. الدواء في الكأس... طار العصفور إلى السماء مثل جدي " .

انتهت من معالجة الموتى، أو لعلّها لم تستطعْ ذلك؛ إذْ سألتْ:

- لماذا لا يجعلون للقبر مفتاحاً؟

طلبتْ أن ترى عصفوراً يشرب من كأس الجد. كانت العصافير تحلّق متحاشيةً حضورنا.

- ينبغي أن نبتعد حتى تشرب.
- هيَّا نبتعد!
- سوف ننتظر كثيراً...

ملّتْ جِنان من الانتظار. وفي طريق العودة إلى البيت، سألتْ:

- هل حطَّ العصفور، الآن؟
- ربما...
- ما نوع العصفور الذي حطَّ؟
- لا أعرف.
- أنا أعرف؛ إنه حسُّون!

سماء و سماء

ذُبِحَ خروفٌ وقُتِلَتْ نملة، وسُحِقَتْ ناموسة، فقالتْ جِنان: "ذهبوا إلى جدي..."

هطلت الأمطار، فقالتْ جِنان: "مسكين جدّي، مبلول!"

قسّمتْ جِنان السماء إلى سماءيْن؛ فيهما جنَّتان: جنّة النار، وجنة الألعاب. وقالتْ: "ذهب جدّي إلى جنّة الألعاب".

نحن والآخرون

- أين الأجداد الآخرون؟
- أيّ أجداد؟
- جدّ جدّي، وجدّه الآخر، وجدّه الآخر...

- ماتوا.

- لماذا؟

- لأن الأرض لا تتّسع لكل البشر من أوّل الدنيا إلى اليوم؛ يموت الذين يهرمون، ويأتي الصغار، فيكبرون بدورهم، ويتركون الأرض لمن بعدهم...

- إذاً، نحن فقط سنبقى، ولن نموت...

- وأنا أيضاً كنتُ أقول ذلك...

الفصل الحادي عشر

عن الأسى...

"فإِنْ تَكُ في قبْرٍ فأنتَ في الحَشَا
وإنْ تكُ طفلاً فالأسى ليس بالطّفْلِ"

أبو الطيب المتنبي

الفصل الثاني عشر

خاتمة: من الذي يعود مرتين؟

لا يوجد في بيتنا، اليوم، حسّون، ولا فكرون. اختفت السلحفاة طيلة بياتها الشتوي. وبعد تفتيشنا عنها في كل مكان من البيت، يئِسْنا. وبقينا ننتظر مفاجأة القمر المطفأ، أو ظهور الساحرة الخيِّرَة التي لوَّنتْها جِنان ثم انقلبتْ عليها "عرفْتُها! كانت شِرِّيرة من الأول!"

أما الحسّون فقد لاح منذ نهاية الشتاء مرهَقاً. كفَّ عن الغناء. وانشغل بتصفية ريشه. كان ريشه يتساقط بوتيرة سريعة. طالبت جِنان بأن نأخذه إلى بيطريّ، وقال جارنا إن هناك دواء في الصيدلية لحالة تساقط الريش. لكنني لم أفكّر- بل فكرتُ ولم أفعل- في زيارة صيدلي أو بيطري.

لم يكد الربيع يطل حتى فوجئْنا بالحسون جثّةً في قفص. كانت قائمتاه إلى أعلى، وتوازيه في المرآة أنثى

مرفوعة القائمتيْن بدورها. بكت جِنان، وأصرّت أن تدفنه وتقرأ عليه القرآن. سألتْني: " لماذا رفع ساقيه عندما مات؟ " فرويْتُ لها الحكاية كما سمعتها منذ أعوام كثيرة: عندما تدنو ساعة العصفور، تصيبُه دوخة، فيشعر بأن السماء هي التي داخت وبدأت بالسقوط. لذلك يستلقي على ظهره ليحول دون سقوط السماء!

***

بعد موت الجد، أصرّتْ جِنان على العودة لزيارة عين زبير وعين شمّاس. لم تعد تسأل عن العين، وماذا تفعل عندما تبقى وحيدة، وظلتْ تذكر طفل المقلاع: "أين يختبئ في الشتاء؟"

هذه المرّة، اصطحبنا ماما والجدّة.

أيكون في العودة حنين إلى الحياة، أم موت؟ ربما الاثنان معاً؟

لم تعد عين زبير نبْعاً بل صارت حنفية شحيحة، والخريف يحوم بطيوره فوقها. كانت الجدة أكثر تلقائية من الجد في الحديث عن ماضيها وذكرياتها، وخاصة ما يتعلّق بصباها. لم نتجاوز البستان إلى أكوام الحجارة التي كانت دياراً هي ديارها، لأن الجدة تعاني من آلام في ركبتيها،

وأمامنا مسافة البستان الهرم محروثة قد يصعب على الجدة السير فيها، بينما كلابٌ تهدِّد عن بعد.

بعد مضيّ وقت، قالت ماما وهي تراقب بابا والجدة:

- رأيتما كلَّ شيء! أما أنا فقد رأيت وجهيْكما. تمنَّيْتُ فقط لو أن هناك من يأتي ويأخذ بيديكما إلى ذلك الزمن، ولو لبضع لحظات، ثم يُعود بكما!

- لنذْهبْ إلى تلك الربوة، حيث كوخ الطفل الساحر! قالت جِنان وهي تجر بابا من يده.

تركنا الجدة التي لا تستطيع المشي كالبطة في أرض محروثة. وبقيَتْ معها ماما في السيارة. وقصدنا الكوخ.

قواقع حلازين جافة على الصخور والأشواك. كان الكوخ خالياً. بضع دجاجات تحوم حوله. جرة ماء. فراش على الأرض. التفتنا إلى أسفل الهضبة؛ لاح شيخ هرم يتقدم بين الصخور والأشواك. كان قصيراً جداً. كتفاه تكادان تلامسان الأرض. يشبه القرد. تقدم باتجاهنا. سلم علينا بحرارة. قال: "انتظرَا قليلاً". دخل الكوخ وخرج بقليل من الخبز والزبدة. وضعهما على الصخرة. عاد إلى الكوخ وأتى بصرّة بيض. قدمها إلى جِنان. ارتبكت ونظرت إليّ. بإشارة مني تناولَتْها منه.

حلازين. حلازين. حلازين. على حيطان الكوخ الطينية. على قش السقف. على أعمدته الخشبية. جافة؟ نائمة؟ شظايا بلور على الأرض. التفت الشيخ نحو جِنان مبتسماً بعينين برَّاقتيْن:

- بمَ تهمس تلك الصغيرة؟

التصقت بي جِنان أكثر. قلتُ:

- تسأل إن كنت تعرف زوبعة؛ طفل المقلاع.

- لم أسمع بهذا الاسم. هل هو اسم؟ أجاب الشيخ وأضاف: احْمِنَا اللَّهُم من الزوابع!

لاح يبتسم بمكرٍ، كمن يخفي سراً. تدخلت جِنان وقالت:

- أنت تتحدث مثل زوبعة! أأنت جده أم أبوه؟

- مر زمن طويل يا بنيتي! كنتُ زوبعة إنْ شئتِ، وبدأت أتحوّل إلى رماد.

والتفتَ إليّ قائلاً:

- كان عليكَ ألا تعود؛ عندما زرتنا في البداية أدركت أنني بدأت أموت؛ لا أحد يعود إلى المكان نفسه مرتين إلا إيذاناً بشيء يموت.

سألْته جِنان دفعة واحدة، وكأنها تتخلص من خجلها:

- هل أنت طفل المقلاع؟ كيف كبرت بسرعة؟ ماذا فعلتْ بك الساحرة الشريرة منذ أن مات جدي!

طأطأ رأسه قائلا:

- يرحمه الله. كان مثل أبي؛ لهذا أشعر أنني شيخ يتيم، مثل أبيك!

- أبي ليس يتيماً!

- إذا سمح لي أن أكون أباه. نعم، أستطيع أن أكون أباه، من دون أن أكون جدك. لكنني أستطيع أن أصير جدك إن سمحتِ لي بذلك أيضاً، كلا، لا أعتقد أنني أستطيع أن أكون جدك!

- لم أفهم شيئاً! والله إنك تتكلم مثل زوبعة!

- أنا الأعلم بموت جدك؛ بموته عرفت أن شيئاً فيَّ مات. موته جعلني أكبر. لا وقت لي لأبحث عن حفيدة.

- ما أريد فهمه هو: أنتَ، هل كنت زوبعة وكبرت؟

- كان على أبيك ألا يعود ثانية.

- هل هي الساحرة الشريرة التي فعلت بك كل هذا؟

- بل هو الساحر الأكبر يا بنيتي! لمَ تبحثين عن ذلك الطفل؟

- في الزيارة السابقة طرحتَ عليّ لغزاً، هذا إذا كنت أنت زوبعة حقّاً، ولم أحلَّه حتى الآن. ولا أحد استطاع

أن يساعدني. قلتَ لي: أنا أبو أبيك وابن جدك، من دون أن أكون أباك، لأنني، كما ترين، أصغر من أن أكون أباً، إلا في الخيال.

وضع الشيخ يده على ذقنه وكرر:

- هه! أبو أبيك وابن جدك؟ هذا يستدعي التفكير: إذا قلنا إن أبا أبيك هو جدك، معقول! وإذا قلنا إن ابن جدك هو أبوك، معقول! المشكلة: كيف يستطيع طفلٌ أن يكون أباكِ وجدّك في الوقت نفسه؟ لا بد من البحث عن شخص ثالث. لكن من عساه يكون؟

تدخلت جِنان وقد بدأت تقترب منه وتشاركه الحديث من دون حرج البداية:

- تذكرتُ؛ قال لي أيضاً: إنه أمرٌ مضحك أن أكون أباكِ!

- هه! ثمة فراغ ينبغي البحث فيه؛ هو فضاء بين الجد والأب، كان يتحرك فيه ذلك الطفل. لكي نجد الحل لا بد أن ننطلق منكِ كمثال أمامنا. دعيني أفكر قليلاً. لنفكر معاً. في حالتك؛ ماذا يوجد في المسافة الفاصلة بين جدك وأبيك؟ زمنياً، توجد طفولتك؛ أمّا في المكان فتوجدين أنت.

- هذا صعب. كيف يكون زوبعة هو أنا؟

- لم أقل ذلك. أنا ما زلت أفكر. ماذا كنت أقول؟ آه! نعم؛ في المسافة التي بين... إذا قلنا إن جدك مات... فأنت سوف تحكين عنه مع أبيك. فيصير شخصاً آخر، يصنعه خيالك وحكاياتك. لكنه شخص آخر ينطلق من الواقع الذي عشتهِ وأنت صغيرة. آه! فهمت. عندما تكبرين سوف تتكون لديك صورة أخرى عن جدك؛ تكون متأتية من الحكايات وبعض الذكريات. كلا، هذا كلام غير مفيد، لم يوصلني إلى أي شيء. ينبغي أن أتكلم كلاماً آخر. لكن ماذا أقول؟

ظل الشيخ يتكلم بتلك الطريقة المتدفقة. تململت جِنان وهمست لي (يا بابا إنه ثرثار!) ظل يفكر بصوت عالٍ وكأنه يبحث عن مسمار أضاعه بينما المطرقة في يده. بدأت جِنان تضحك وكأنها أرادت أن تضع حداً لضياعه (المسمار أم الشيخ؟) فسألتْه:

- فيمَ يفكر الحلزون وهو نائم كل هذا النوم؟

تجمد الشيخ في أوج حركته، وبدت الدهشة في عينيه الضيقتين:

- هه! فيمَ يفكر الحلزون؟ هذا سؤال مهم! لا أحد

سألني مثل هذا السؤال قط! يبدو أنك جئتِ كي تسأليني هذا السؤال. فيمَ يفكر الحلزون؟ هذا سؤال رائع!

- سؤال رائع؟ تساءل بابا وأضاف: وهل تفكر الحلازين؟

- الحلازين لا تفكر؟ إنها تفكر عندما نفكر نحن أنها تفكر! هذا يقربنا من المسألة.

- أية مسألة؟ سألته جِنان.

- لغز زوبعة!

- لم تنسَه؟

- ومتى نسيته؟

- لكنك صرت تتحدث عن الحلازين...

- الحلازين! أكنتُ أتحدث عن الحلازين حقاً؟

- نعم.

- وما لها الحلازين؟

- سألتكَ: فيمَ تفكر؟

- أنتِ التي سألتِ ذلك السؤال؟

- نعم.

- آه! وجدتها! هي تفكر لأنك أنتِ التي فكرت أنها تفكر. هذا أمر مهم!

سكت قليلاً ثم شرع يحك رأسه:

- أنت خلقتِ مساحة ثالثة بين الحلزون ونومه. إذن هو يفكر. ماذا أقول؟ ربما لم أتوصل إلى أية نتيجة لأنني أفكر بصوت عال. قلتُ مساحة؟ هذا مهم! لكن، لمَ هو مهم؟ لأن الحلزون النائم هو حلزون مفكر. هذا واقع آخر، عالم آخر، تخلقينه أنت.

- زوبعة كان يحبّ الحلازين...

- آه! لابدّ أن هناك من فكَّر فيه كما فكّرْتِ أنت في الحلزون النائم! لابدّ أن هناك منْ أتى به!

- جاء وحده، والتصق بنا.

- وهل أقول أنا إن كل هذه الحلازين جاءت وحدها؟

- وهل جئتَ بها أنت؟

- كلا، جاءت وحدها!

- إذاً، ها أنتذا قد قلتَ ذلك!

أعجبني هذا الشيخ الطريف، الباحث عن مسماره الضائع بصوت عال، لكنني بدأت أملّ من عدم التوصّل إلى أية نتيجة، فتدخلت في الحوار قائلاً:

- اسمع يا شيخ، ما هو اسمك؟

- عبد القادر.

- ذكّرْتني بجملة كان يرددها والدي: القدر غلب عبد القادر.

- آه. آه. آه!

سألته جِنان:

- لماذا تقول آه، آه، آه؟

تجاهل سؤالها وعاد ليسألني:

- متى كان يقول ذلك؟

- عندما كنت صغيراً.

- إذن فقد ذكّرْتُك بطفولتك.

- كل شيء، هنا، يذكرني بطفولتي.

- آه، آه، آه!

علقت جِنان:

- عاد ليقول آه، آه، آه، ثلاث مرات!

- ذلك الطفل الزوبعة، نطق بالحكمة! سأسأل ابنتك: عندما كان أبوك صغيراً، هل كنتِ موجودة؟ طبعاً لم تكوني موجودة. وكان هو طفلاً. وعندما عاد إلى هنا، معك، عاد إلى ذلك الطفل.

- كيف؟

- دعيني أكمل، عاد إلى ذلك الطفل، واحتار كيف يعود إليه وأنتِ معه...

- لا بد أن أكون معه!
- لا يمكن، ويمكن... إذا كان هناك زوبعة.
- إذاً من يكون زوبعة؟
- هو من يربط بين أبيك الصغير وبين أبيك الكبير.
- لم أفهم شيئاً...
- الطفل يسبق الرجل...

والتفت نحوي قائلاً:

- فسِّرْ لها أكثر...
- أفسر لها أكثر؟
- نعم!

عاد الشيخ يدور أمام كوخه مردداً:

- الحلازين تفكر، أنا أبو أبيك وابن جدك، الطفل يسبق الرجل... إذاً... فالطفل هو أبو الرجل!

أردت التخلص والمغادرة، لكنه ظل يرفض توديعنا. كان مشغولاً بالدوران حول نفسه بشكل بطيء، مخروطي، حلزوني تماماً، لكن على مستوى القشرة. فجأة تجمد الشيخ في دورانه. نظر إلى جِنان وقال:

- أعيدي عليّ ذلك اللغز.

أعادته عليه، فقال:

- لنتخيل أنك ترين الآن طفلة أمامك، وتقولين لها:

أنـا أمّ أمّـكِ وابـنـة جـدّكِ مـن دون أن أكـون أمَّـك**!** مـن ستكـون هـذه الطـفـلـة؟ هـذا أيـضـاً أمـر صـعـب. بـل هـو أصعب.

– لماذا؟

– يجب أن تكبري، وتنجبي، وتظلي صغيرة...

– ماذا؟

– إلا إذا حلمْتِ؟

– بمَ؟

– بأنك كبرت وأنجبت طفلة.

– وبعد ذلك؟

– تعودين صغيرة ومعك طفلة.

– هذا مستحيل.

– نعم هذا أمر صعب.

– لماذا تتحدث عنه إذاً؟

– لأنني أريد التوصل إلى حل اللغز...

– أنا لم أعد أرغب في العثور على ذلك الحل.

– لماذا؟

– لأنك جعلتَني أكبر، وأنا لا أريد ذلك الآن.

– لماذا؟

- لأنكَ عندما تجعلني أكبر أفعل ذلك وأشعر بالخوف.

- كيف؟

- أكبر فلا أعود أنا، وأترك نفسي صغيرة وحدها، ورائي، ماذا أقول؟ أريد أن أكون أنا هي أنا!

- آه! آه! آه!

- عدتَ إلى القول آه، آه، آه...

- أنتِ على حق لأن الذي يكبر يفقد هذه "الأنا هي أنا"، معنى ذلك، معنى ذلك... أن الحلزون لم يفقد تلك "الأنا هي أنا"!

- وما معنى ذلك؟

- أنتِ الآن أمُّ تلك المرأة التي سوف تكبر في المستقبل، أي أن الطفولة تسبق الكهولة. آه! آه! آه! وجدتها! الطفولة تسبق الكهولة. قوليها لها، قوليها لها!

- أقول ماذا؟ لمن؟

- قولي لكِ وأنت كبيرة. قولي لها الآن: أنا أمُّكِ.

- وبعد ذلك؟

- اجعليها تنجب طفلاً أو طفلة.

- وبعد ذلك؟

- قولي للطفل، قوليها له...

- ماذا أقول له؟
- أنا أم أمك وابنة جدك، مع أنني مازلت لست أمك.
- لا أستطيع.
- لماذا؟
- لم تعجبني هذه الفكرة.
- إذاً، لا حلّ للغز.
- لا أريد حلاً.
- كيف؟ ألم تأتي من أجله؟
- دوخت رأسي. دوختني.

أمسك بابا بيد جِنان وقال:

- إذاً، لنترُكْ كلَّ شيء حتى يحلّ أوانه!

وفيما عاد الشيخ إلى دورانه البطيء حول نفسه، اقتربتْ منه جِنان وقالت:

- أنت متنكِّر! لقد عرفتك! لا شك أن الساحرة الشّرِّيرة هي التي أمرتْك أن تفعل كلَّ هذا. هيَّا، قل الحقيقة! ماذا تفعل وحدك هنا؟
- أنتظر صاحب الوديعة.
- الوديعة؟
- الأمانة!

- أية أمانة؟
- الحياة!
- إذا كانت الحياة أمانة فمتى سيأتي صاحبها؛ هذا الذي تقول إنك تنتظره؟
- عندما أكفّ عن مكري في الاحتفاء به.
- كيف؟
- بمزيد المحافظة على وديعته!

بعد ذلك تجاهلها، وتابع رقصته المخروطية.

رفض المجيء معنا عندما طلبتْ منه جِنان ذلك. اكتفى بالقول: " لم أعد سوى بقية حكاية، لذلك سوف أزوركِ في الحكايات". نزلنا الربوة. وكما لو أن عدْوى الثرثرة قد انتقلت منه إليها، ظلّتْ جِنان تتحدّث عنه، متفاديَةً سحقَ الحلازين تحت قدميها الصغيرتين، مردِّدَةً: " ما أكثر الشوك هنا! وما هذا البيض الذي تكسّر كله؟" تناولتُ منها صرّة البيض الذي بدا وقد تكسّر كله فعلاً، وألقيتُ به جانباً ثم الْتفتُّ خلسةً. ومن وراء كتفي، لمحته يودِّعنا واقفاً على صخرته التي بدتْ عاليةً الآن. كانت ملامحه تزداد هرَماً مع غروب الشمس وانحناء أشعتها على

أطراف الكوخ. وكانت جِنان قد أتت الالتفاتة نفسها، فقالت:

- إنه هو! ألم تلاحظ أن الليل بدأ يحوِّله إلى غراب؟

تقدمنا حتى تلاشى شبح الشيخ نقطة بعيدة، راقصة، تحت الغروب. قالت جِنان:

- يا له من لغز أثار كل ذلك الكلام!

قلت لها:

- لعل زوبعة كان يقصد أنه أصغر مني في داخله وأكبر مني في خارجه...

- لم أفهم. صرتَ تتكلم مثله!

- أي أنه وُلِد معي. وكبرت أنا. فظل هو يتذكرني صغيراً. وأنا اليوم أتنكر له. كما قال شيخ الحلزون: الطفل أبو الرَّجُل لأن الطفل يسبق، ثم يأتي الرجل.

- يسبق في الركض أم في العمر؟

- في الاثنين معاً.

- ولماذا وجدناه عجوزاً هذه المرة؟

- قال إن العودة لا تتم إلا مرة واحدة.

- لماذا يربي الحلازين؟

- ربما لأن أهل الكهف لهم كلب.

- احكِ لي حكاية أهل الكهف، ولا تقلْ لي: كان يا ما كان.

- والنبي سليمان كان له هدهد.

- احكِ لي حكاية سليمان، ولا تقل لي: كان يا ما كان.

- والنبي إبراهيم كانت له ناقة.

- احكِ لي حكاية إبراهيم، ولا تقل لي: كان يا ما كان.

- واليهود كانت لهم بقرة.

- احكِ لي حكاية اليهود، ولا تقل لي: كان يا ما كان.

- والمسيح كان له حمار.

- احكِ لي حكاية المسيح، ولا تقل لي: كان يا ما كان.

- ولا أحد كان له حلزون!

- لا أحد؟

- نعم، لا أحد!

- إذاً، لقد أحسن زوبعة في اختيار الحلزون!

- لماذا؟

- لتكون له حكاية، تحكيها لي ولا تقول: كان يا ما كان.

كنت ممسكاً بيدها عندما رفعت رأسها نحوي وهي تتعثر بين الأشواك والحجارة:

- "منذ اليوم، أنا أغسل لك شعرك بالشامبو، وأنت تغمض عينيك، وأسألك بمَ تحلم؟ وقبل أن أنام تحكي لي حكاية عن طفل المقلاع الذي اسمه زوبعة، والذي تتحكم فيه الساحرة الشريرة فتحوله إلى ما تشاء، حتى أنه يكبر ويصير شيخاً ثرثاراً، أو بومةً، أو غراباً. لكن الساحرة الطيبة تشير إليه بعصاها فيعود طفلاً. عندما تنام سوف أغطيكَ وأربِّت على شعرك. وعليك ألا تشخر! سمعت؟ عليك ألا تشخر!"

عدنا إلى السيارة حيث كانت تنتظرنا ماما والجدة. كانت تقف إلى جانب السيارة امرأة عجوز تحدثهما. قالت، عندما اقتربنا:

- كنتما عند قدّور المجنون؟
- أهو مجنون؟ سألتها جِنان.
- إي بنيّتي، الكل هنا يعرف.

- حتى هو دوّخ لي رأسي! قالت جِنان.
التفتت العجوز نحوي وسألتني مستنكرة:
- ما لقيت وين تأخذ بنتك إلا عند قدّور؟
ابتسمتُ ولم أجبها.

انطلقنا عائدين إلى المدينة. وفي الطريق قالت جِنان:
- لا بد أن أصير طبيبة عجائز حتى أداوي كل الذين يكبرون.
ثم التفتت نحو جدتها وقالت لها:
- أما أنتِ، فمن الأفضل لك أن تتحولي إلى طفلة!

(تمّت في تونس، صيف 2002)

محمد علي اليوسفي

* محمد علي اليوسفي من مواليد مدينة باجة بالجمهورية التونسية 3 مارس 1950 .

* متزوج وله أنسي ودانية.

* درس المرحلتين الابتدائية والثانوية بتونس ثم سافر إلى الشرق العربي حيث أتم دراسته الجامعية في جامعة دمشق وتخرج في قسم الفلسفة والعلوم الاجتماعية.

* تابع الدراسات العليا في الاختصاص ذاته بالجامعة اللبنانية خلال الحرب الأهلية.

* وفي الأثناء مارس الترجمة والكتابة والصحافة الثقافية في أبرز الصحف والمجلات السورية واللبنانية والفلسطينية.

* عاد إلى تونس ليستقر بها بعد عشرين عاماً أمضى ثمانية منها في جزيرة قبرص.

*** أعماله المؤلفة:**

أ- في الشعر:

* حافة الأرض، دار الكلمة، بيروت 1988.

* امرأة سادسة للحواس، دار الطليعة الجديدة، دمشق 1998.

* ليل الأجداد، وزارة الثقافة السورية، دمشق 1998.

ب - في الرواية:

* توقيت البِنْكَا[جائزة الناقد للرواية] رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1992.

* شمس القراميد،[جائزة كومار:الريشة الذهبية] دار الجنوب، تونس 1997.

* مملكة الأخيْضَر، دار الطليعة الجديدة، دمشق، سوريا 2001.

* بيروت ونهر الخيانات، دار الفارابي، بيروت 2002.

* دانتيلا، دار الفارابي، بيروت 2005.

ج - في النقد:

* أبجدية الحجارة، بيسان برس، نيقوسيا، قبرص، 1988.

*** أعماله المترجمة:**

أ . شعر:

* حرية مشروطة، أوكتافيو باث، الدار العالمية، بيروت 1983.

* مدائح النور، مختارات من الشعر اليوناني، دار الملتقى، ليماسول، قبرص1994.

ب . رواية:

* حكاية بحار غريق، غابرييل غارسيا ماركيز، دار ابن رشد، بيروت 1980.

* خريف البطريرك، غابرييل غارسيا ماركيز، دار الكلمة بيروت1981. طبعة جديدة، دار المدى، دمشق 2005.

* البابا الأخضر، ميغيل أنخل أستورياس، دار التنوير، بيروت1981.

* نارایاما، شيتشيرو فوكازاوا، دار التنوير، بيروت 1982.

* مملكة هذا العالم، أليخو كاربنتييه، دار الحقائق، بيروت 1982.

* البيت الكبير، ألفارو سيبيدا ساموديو، دار منارات، عمان 1986.

* ليلة طويلة جداً، كريستين بروويه، دار الجنوب، تونس1994.

* بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة، داي سيجي، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، 2004.

ج . سيرة:

* المنشق، سيرة نيكوس كازنتزاكي بقلم زوجته، دار الآداب، بيروت 1994.

د . دراسات:

* بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ماكس

هوركهايمر، دار التنوير، بيروت1981، طبعة جديدة عن دار الفارابي ودار التنوير 2006.

* بلزاك والواقعية الفرنسية، جورج لوكاش، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس 1985.

هـ ـ سينما:

* الثورة الفرنسية في السينما، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2003.

* قرن من السينما الفرنسية، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2005.

و . رحلات

* من تونس إلى القيروان، غي دي موباسان، دار المدى، دمشق، 2004.

العنوان الإلكتروني:

yousfimedali@gmail.com

yousdali@yahoo.fr

المحتويات